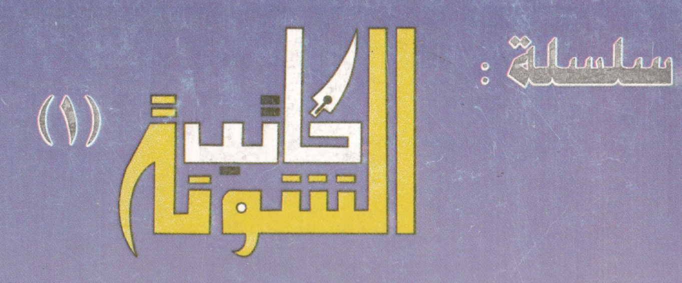
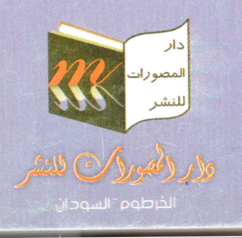


بخت الرضا :

التعليم والاستعمار

عبدالله علي إبراهيم


دار
المصورات
للنشر
m
دار المصورات للنشر
الخرطوم - السودان

سلسلة كاتب الشونة (1)

بخت الرضا : التعليم والاستعمار

عبد الله علي إبراهيم

دار المصورات للنشر

الخرطوم – السودان



بخت الرضا : التعليم والاستعمار

فهرسة المكتبة الوطنية – السودان

.370.9624 عبد الله على إبراهيم على / 1942 –

ع إ س سلسلة كاتب الشونة : كامل بخت الرضا : مدرسة غنية لمجتمع صغير

عبد الله على إبراهيم على – الخرطوم : دار المصورات ، 2010م

45 ص ، 24 سم.

ردمك : 2- 8- 959- 99942- 978

1. التعليم – تاريخ السودان

2. معهد تدريب المعلمين – تاريخ السودان .

أ. العنوان .

الطبعة الأولى

الخرطوم 2010م

دار المصورات للنشر

السودان- الخرطوم - شارع الحرية

هاتف : 00249153987278

بريد اليكتروني : Daralmosawarat@yahoo.com

مُقدِّمة

الاستعمار والتعليم

تتناول هذه الكلمات الطلاق الواقع بين المدرسة الحديثة، التي هي غرس الاستعمار في البلاد المطوءة به، وثقافة المجتمع المحيط بها. وسأتطرق لطلاق المدرسة من المحيط على ضوء فلسفة المنهج التي اتفقت للإنجليز في السودان. وقد تولى كِبر هذا الطلاق معهد بخت الرضا الذي تأسس في ١٩٣٤ لبدء تجربة أخرى في التعليم الإبتدائي الاستعماري سنقف على السياسات التي اكتنفتها في موضعه.

وتقع هذه الدراسة بصورة أخص في حيز دراسات الاستعمار والمناهج المدرسية. وهي دراسة في قول ج أ ماقمان في كتابه "المنهاج الإمبريالي: العقائد العرقية والتعليم في التجربة الاستعمارية البريطانية" (دار روتلدج ١٩٩٤) إننا لم ندرس بصورة كافية الجذور العرقية في التعليم الاستعماري. فالمدراس حقاً تعلم معارفاً ومهارات ولكن فقط في صور تضمن الخضوع للإيدلوجية السائدة وطغيان ممارساتها. ويضيف ماقمان: "فلم نول دور المنهاج الاستعماري وما اشتمل عليه من كتب مقررة في ترويج النمطيات العرقية نظراً مداوما للوقوف على تنشئتة ميول التمركز حول الإثنية وشَنَف الرعايا المستعمرين. وقال إن مثل الدراسة التي يقترحها ستثير الخواطر. ونصح أن تقوم على جادة الأكاديمية لا على ملاحاة إنفعالية من العداء للاستعمار. فهو يريدنا أن نولي عنايتنا لطبيعة تبشير الاستعمار بنفسه وتلقينه للآخرين وأغراضه وإجراءاته".

لا خلاف أن بخت الرضا منشأة استعمارية. وسنقف على ملابسات نشأتها وفلسفتها خلال فصول هذا الكتاب. وصارت هذه المؤسسات موضوع نقد صارم كما طلب ماقمان في أدبيات مدرسة ما بعد الاستعمار العائدة للدكتور إدورد سعيد. إلا أنه مما يزعج أن معهد التربية ببخت الرضا، مهما قلنا عن حسناته، اكتسب صفة القداسة. فلا نقد يطاله لأنه التعليم الخاتم عند الجيل من التربويين وغيرهم. ومن أدخل الأبواب على "كهنوتية" بخت الرضا هو أن الصفوة المحدثة واليسارية قد بطل عندها بالكلية نقد الاستعمار. وسبب ذلك هو خيبة الحركة

الوطنية ودولتها التي ألجأت الصفوة، من فرط قلة الحيلة، لترى في عهد الاستعمار "عصراً ذهبياً" نبيلاً. وشاعت العقيدة في صواب الاستعمار حداً مزعجاً. ومن ذلك استسخافهم للفكرة الوطنية ذاتها. فالاستعمار عندهم رحل عنا طوعاً ولا مجد لمدعيّ إخراجه عنوة. ومن آخر ما قرأت في هذا الباب من التهافت الغريب قول الأستاذ شوقي بدري إنه اتفق للإنجليز منذ الأربعينات أن يتركوا السودان خلال عشر او خمس عشر سنة. وفعلوا. ففيم الضجة؟ فلم يأت بالاستقلال أحد. ويقال في موضع التمييز البائخ إن السودان نفسه لم يكن مستعمرة. " ولم يتبع ابدا لوزارة المستعمرات. ولم يكن هنالك استيطان بريطاني في السودان. بل ٧٠٠ موظف في كل السودان. فلا يحق لأي انسان ان يدعي بأنه قد اتى بالإستقلال للسودان. هذا محض كذب" (سودانايل ٢٦-٤-١٠). ويقع هذا التنصل عن الوطنية ومصطلح الاستعمار عندنا في وقت الذي تسود بين غيرنا مدرسة دراسات ما بعد الاستعمار وتكتشف في الاستعمار سوءات تقعد بنا دون التحرر والسيادة. وهي سوءات كانت فاتت على الحركة الوطنية نفسها.

وذاعت عزة التربويين ببخت الرضا بين العامة. فالسيد هاشم مساوي، الذي لا أعرف إن كان معلماً أم لا، وصف المعهد بأنه هدية الإنجليز لنا. فرأى فيه شموخاً وراءه أهداف واضحة وبعد نظر نفقده الآن كثيراً. وزاد قائلاً بأنه صرح رعاه مستر قريفث أحد أبناء جون (الإنجليز) الذين ألقت بهم يد القدر في أرض السودان ليهدي الأمة السودانية كنزاً ما عرفوا التعامل معه (السوداني ١٨-٣-٢٠٠٦). وقس على ذلك من ضروب الورع السياسي حيال هذه المؤسسة الاستعمارية.

ومن ضروب هذا الورع ما عثرت به وأنا اقلب برامج الأحزاب السياسية لمعرفة رأيها في إصلاح التعليم قبيل إنتخاباتنا الماضية (٢٠١٠). ووجدت في كتاب حزب الأمة "أوراق المؤتمر العام الثالث" (٢٠٠٩) ورقة عن التعليم تكاد تكون إطراءاً عظيماً لمعهد بخت الرضا. فسمته المعهد "العريق العتيق" كثير المهام و"بيت الخبرة" الشمس الذي تدور حوله أفلاك المعاهد الأخرى. واستنكر الكاتب أن تعهد الحكومات اللاحقة لبخت الرضا مهمة وضع مناهج المرحلة الثانوية قائلاً: "كيف يمكن لهذا الصرح أن يقوم بكل ذلك مع العملية التربوية الذي أسسه مستر غريفث ومستر هووجين؟ (هودجكن) لها. وقال إن هذا البيت الكبير تسودن وظل يعطي الوطن خبرة أبنائه ممن هم "ملء السمع والبصر". ووصف المعهد ب "الصرح" الذي علمنا أن "نمتلك سلاح المعرفة" حتى قال عن الأجيال التي تخرجت بواسطته " أجيال لا شبيه لهم في الألفية الثالثة".

وتبرز "العقيدة" في روعة بخت الرضا كتعويض عن خيبتنا في الاستقلال في نعي "أوراق" حزب الأمة لإ نطواء صفحة هذه المؤسسة التربوية الغراء بفضل النظم الشمولية التي تتابعت من لدن الرئيس نميري (١٩٦٩-١٩٨٥) إلى الإنقاذ (١٩٨٩-). فأهمل نميري بخت الرضا وارتجل سلماً تعليمياً فاسداً. وبدأ توريط التعليم في سياسته وأكملت ذلك دولة الإنقاذ. وتوسع الكاتب في عرض أخطاء الإنقاذ في التعليم مما هو معروف. واختتم مقاله بتوصيات أراد ببعضها رد الاعتبار لبخت الرضا حتى بعد أن ماتت وشبعت موت. فقال بوجوب "إعطاء بيت الخبرة بخت الرضا صلاحيات أوسع في وضع المنهج وتجريبه في مدارسها. واضاف بوجوب "الاستعانة بخبرات خريجي بخت الرضا في مجال المنهج والتدريب والمتابعة حتى لو ذهبوا للمعاش".

المجدد للمهدية التي قضى عليها الاستعمار باني بخت الرضا. والأعجب أن هذا المعنى لم يغب عن كاتب الورقة. ففي مقدمتها التاريخية ذكر المهدية ك "أول حكومة وطنية مائة بالمائة من صلب هذا الشعب" بقيادة المهدي الذي أسس دولته، التي لم تدم، على المعرفة. فجاء الاستعمار "وانطوت أعظم صفحة خلدها التاريخ المعاصر بأحرف من نور على جبين هذه الأمة الفاضلة". فبدأ في تخدير الشعب "بالتعليم وخاصة التعليم الأساسي بقيام كلية غردون" وتخريج بعض الأفندية في مجالات الخدمة المدنية المختلفة. ومافرغ الكاتب من هذه الشعارات الوطنية المفعمة في مقدمته حتى أطنب في مدح "صرح" بخت الرضا العريق العتيق.

تمثل عبارة حزب الأمة في التعليم حالة "فصام معرفي". فهي على الجانب الصحيح من جهة الوطنية. فقد قالت بالنص إن الاستعمار هدم المهدية التي هي زبدة معارف السودانيين وممارساتهم في المعاش والمعاد. ثم استخدم التعليم ل"تخدير" السودانيين أي حملهم على تقبله. ولكن العبارة تخطيء من جهة التربية فلا ترى في "بخت الرضا" أداة مركزية من أدوات "التخدير" لإسباغ الشرعية على مهمة الإنجليز بيننا. وهذا الفصام المعرفي هو الأصل في النوستالجيا ضاربة الأطناب بين صفوتنا البرجوازية الصغيرة التي ترهن النهضة بالعودة إلى مؤسسات الزمن الجميل الذي مضى. فشعاراتها الوطنية في واد وأفقها في ممارسة مهنها في واد أخر. فعلى صعيدها السياسي الشعارتي وجدت نفسها خلواً من الخبرة الوطنية في إدارة البلد على نهج قويم. ولذا تجدها، كما رأينا كاتب حزب الأمة يفعل، تنتقل بما يشبه الفصام من هجاء الاستعمار إلى مدح مؤسساته والغلو في ذلك. ومنعنا هذا المأزق المعرفي من أن نتصل بفرع في فلسفة التربية

هو "الاستعمار والتعليم" الذي ندب ماقمان قلة العناية به بعامة.
لم نخرج بهذا الكتاب لهدم بخت الرضا كخبرة في التربية السودانية وإنما لهدم هالة القداسة التي جعلتها وثناً ثقافياً سدنته غلاظ شداد. وهذه جاهلية حالت، وستحول، بيننا وبين فهمها كخبرة تربوية سودانية كما يدعو سدنتها. وهي خبرة جرت دراستها عند نقاد التعليم الاستعماري كنص "هجين أو خلاسي". وتنامى الاهتمام بمثل هذا النص في المباحث بفضل مدرسة دراسات مابعد الاستعمار التي أطلقها من عقالها المفكر الراشد الوسيم المرحوم إدورد سعيد. ويعنون ب "النص الخلاسي" أن المستعمرة، خلافاً لقول قادة الحركة الوطنية، لم تنقسم إلى وطنيين خلص وإنجليز خلص على طول الخط. بل اختلط الاثنان اختلاطاً تعمينا عنه عقيدة الخلوص الوطنية من "أوشاب" الاستعمار. بل هناك من يقول إن هذه الخلطة بلغت الغاية عند الوطنيين أنفسهم. وتريد هذه المدرسة أن تقف على هذه "الأوشاب" بدراسة النصوص الخلاسية مثل رضا. فليست رضا كما ظنها الوطنيون الأبكار مجرد "دنس استعماري" نتبرأ منه. فهي طاقة وطنية كما حاولنا بيان ذلك في فصول مثل "دمع العين يزيل ألمي" من هذا الكتاب. ولكنها طاقة شكلها الاستعمار وفق منطقه ومقاصده في ثقافة قوية (دعك من حسنها وقبيحها) بقيت بعده. وسنضل في العلم بالاستعمار وبأنفسنا إذا اعتقدنا أنه رحل عنا وتركنا كصحن الصيني لا شق ولا طق. فلقد تهافت البرنامج الوطني ل"محو آثار الاستعمار" لأننا فهمنا خطأ أن الاستعمار "يتبخر" بالاستقلال فنعود سيرتنا **الأولى كمن يصحو من حلم مزعج.**
يرفع هذا الكتاب عقيدته بالدعوة لبداغوغي المستضعفين من أمثالنا في عالم الطاغوت. ومسعانا للحم المدرسة بثقافة محيطها، التتي استبخستها رضا وورثتها، هي مما دعت له الدكتورة لند سميث، من شعب الماروي النيوزيلندي، للتحرر من الاستعمار كمعرفة تشربناها واستساغها نفر كثير منا.

بخت الرضا: الحكمة إنجليزية

خلص الباحثون إلى أن الاستعمار مشروع ثقافي بعيد المدى. وهو أمر فرّطت الحركات الوطنية في أخذه بعين الاعتبار متى انزاح الاستعمار عن كاهلنا. فقد ظنتْ أن بوسع الأمة التي تحررت أن تعيد صلتها بتاريخها وثقافتها كأن الاستعمار لم يكن. وقصّرت الحركة الوطنية، من مثل مؤتمر الخريجين في السودان، عن الإحاطة بالاستعمار كإرث ثقافي متين يلزم في حربه البأس الفكري الشديد. وسرعان ما تهافتت الفكرة والحركة الوطنية تحت معول الحركة الإسلامية المسماة بالأصولية. وهذه الحركة الأصولية شديدة الانتباه لتغلغل الإرث الاستعماري فينا ولكنها أخطأت حين ظنت أن مهمة العودة للأصول هينة والطريق إليها مفروش بالورود. ويكفيها في ذلك أن تجيز دستوراً إسلامياً ،من سدة البرلمان أو فوهة البندقية -لا فرق، يرد الناس إلى الجادة من تراثهم. وربما كان استسهال الإسلاميين لخطة السفر السعيد ،عودة للأصول، هو أساس محنتهم السياسية والفكرية الراهنة. فقد أودت بهم إلى مسارعة غير رشيدة إلى الله بتركيز مغال فيه على السلطان يزعون به ما لم يزعوه بالقرآن.

يشترك التبشير، أياً كان، والاستعمار في سوء ظنهما بثقافة الآخر. فمهمتهما تنحصر في تفريغ الاخر من ثقافته أو بدائيته أو وثنيته أو همجيته وحشوه حشواً بما حملا من دين جديد صحيح أو ثقافة متحضرة حديثة. فالآخر، موضوع الاستعمار أو التبشير، في نظرهما في حالة خلاء ثقافي سيستنبت المبشر أو المستعمر الرياحين الفكرية في ذهنه القفر القاحل. ومن أطرف ما قرأت عن مسألة خلاء بلد المستعمر من الثقافة خطاب عثرت عليه في أرشيف مركز بارا عام ١٩٦٧ مرسل من مفتش بحري كردفان الإنجليزي إلى مرؤوسه مفتش مركز سودري. وقال الخواجة في الخطاب إنه سعيد أن سودري، التي ظنها قاعا صفصفاً من الثقافة، ترفل في ثياب الشعر. ومناسبة ذلك أن مفتش سودري كان بعث له بمرثية نظمها بتجاويش المركز نعى فيها الشيخ السير علي التوم زعيم شعب الكبابيش عام ١٩٣٨. وما درى الخواجة الهاري بالشعر العجيب الذي "احتوى سره ضمير الرمال" بجهة سودري كما قال الناصر قريب الله في "أم بادر" التي تغنى بها الكابلي بعذوبة فأشجى.

لا خلاف أن بخت الرضا منشأة استعمارية. وقال قريفث في كتابه "تعليم قطب رحاه (أي مركز دائرته) المدرس" (١٩٧٥) إنها ثمرة سياسة تعليمية إنجليزية استجدّت في أوائل الثلاثينات. فمنها استمدت رضا فكرتها الجوهرية في ترييف التعليم، أي جعله خادماً لحاجيات أهل الريف وهم الكثرة من أهل السودان. فالإدارة الاستعمارية ضاقت بالتعليم في مدارس الكتاب السابق لرضا الذي قصر دون تخريج موظفين أكفاء في الدرج الأسفل من الخدمة. كما أنها أرادت للتعليم أن يخدم النهضة الزراعية في بلد يعتمد على الزراعة وأن يعضد نظام الإدارة الأهلية الذي كانت الدعوة له وتطبيقه قائمَين على قدم وساق أيامها. والثلاثينات كما هو معلوم هي فترة أفول الاستعمار. فقد هزته من عروقه خيبته في غرسه في كلية غردون. فقد مد لهم في التعلم مدا وأعطاهم جاه الوظيفة ليكونوا أداته الطيعة الحامدة الشاكرة في تمدين الأهالي. فإذا بهم يعضون يده الواهبة بانقلابهم عليه في ثورة ١٩٢٤ وفي إضراب الكلية عام ١٩٣١ وفي غزلهم غير المنقطع مع مصر: الشريك الإسمي في حكم السودان. وثارت ثائرة المستعمر وقرر أن يعامل غرسه الخائب بالمثل فاغلق بعض المدارس لتحجيمهم وسعى للتحالف مع الصفوة التقليدية في الإدارة الأهلية واستن القوانين التي تمكنها في الأرض. وخطط المستعمر للمدرسة الكتاب أن تخدم مقاصده الجديدة في إعلاء الريف علي المدينة بتخريج معلمين مخشوشنين من معهد كالقرية مثل رضا. فقد أرادهم أن يرضوا بالريف الذي لم ينقطعوا عنه في معهدهم مثل طلاب غردون المطاميس ممن أفسدهم حسن الحضارة وتطريتها. ولتحديد جهة القصد والمحاسبة اخترع قريفث عبارة "محمد احمد دافع الضرائب" التي يظنها أكثرنا عبارة ربما جاءت على لسان المرحوم عبد الله رجب نصير الغبش والدهماء. فخلافاً للغردوني المستمصر ذي الولاء المشبوه فخريج رضا قد تدرب ليخدم القرى ولا شئ سواها. وربما فسر هذا الدخول المتأخر نسبياً للسياسية الطلابية المعادية للاستعمار في ساحة رضا.

كان اختيار الموقع للمعهد التربوي الجديد في رضا بجهة الدويم من إملاء سياسة ترييف التعليم. فبخت الرضا بلدات (بكسر الباء) لبدو يزرعونها في الخريف ويحصدونها ويخزنون عيشهم بها ثم يتابعون هجراتهم لرعي سعيتهم. وكانت امراة اسمها بخت الرضا تقيم بالمكان. وفي الاسم وحي أنها ربما كانت مملوكة لهؤلاء العرب. وعادة تخليف الرقيق على زراعة عرب الخلاء فاشية. ولم تلق تجربة ترييف التعليم نجاحاً باعتراف قريفث. فقد انحصر في تعليم الزراعة لطلاب المعهد بصور مختلفة ومن ذلك أن تكون لكل طالب قطعة أرض يتولى

زراعتها. بل نشأت مدرسة ريفية ثانوية صغرى في ١٩٤٢ ينفق التلميذ نصف وقته في الزراعة استخشاناً وتدريباً للعودة كمزارع مستنير لا يتكفف وظائف الدولة. وكانت هناك تعاونية زراعية ونادٍ لصغار المزارعين. ويرد قريفث فشل تجربتهم في ترييف التعليم بصورة أساسية إلى شرط الزمان الغلاب. فقد عرفت الأسر والتلاميذ من التعليم بالضرورة أنه الجسر لخدمة الحكومة يتوسلون لذلك بحرف مكتسبة وبتعلم الآداب من تراث العرب والإسلام ومعارف الغرب. وعليه كان الترييف ردة تأخذ التلميذ القهقرى إلى الريف الذي أراد الفكاك منه. وهذا في معنى ارتداد المستعمر عن مهمة التمدين. فقد تمسك الأهالي بالتمدين بينما ارتد عنه الاستعمار إلى أعراف القبائل القديمة لضرورات إدارية بعد أن أراد الخريجون الفتك بهم. وقد شجب هذه التهويمات الرومانسية الاستعمارية الواهمة إداري إنجليزي استنكر سياسة الرجعة إلى زعامات الريف لحكم السودان فيما عرف بالإدارة الأهلية منذ آخر العشرينات.

ربما لم يخطئ غلاة محبي رضا كل الخطأ في إيثارهم لها. لا خلاف أنه كان للسودانيين دوراً مشهوداً في تشكيل هذه التجربة التعليمية الهامة مهما كان الرأي فيها. وقد أوفت بيان هذا الدور السوداني الدكتورة المحققة "النجيضة" فدوى عبد الرحمن علي طه في كتابها الذي برّت بها والدها نائب عميد رضا منذ تأسيسها حتى ١٩٤٨. ويبقى علينا مع ذلك أن نحدد منزلة هذا الدور وخطره بصورة دقيقة حتى نسلم من الغلو في الأحكام. فبرغم عرفان الإنجليز للسودانيين بعظم مساهمتهم برضا للحد الذي أهدى قريفث كتابه للسيد عبد الرحمن علي طه، إلا أنهم ألحوا على أن الطاقم الإنجليزي كان منها بمكان العقل بينما كان السودانيون الفعلة الأذكياء. فلم أر إلحاحاً مثل إلحاح قريفث في تقسيم الأدوار برضا بحيث كان للطاقم الإنجليزي فضل التفكير والتخييل في مادة التعليم، بينما كان أجر الطاقم السوداني هو تطبيق تلك الأفكار والخيالات. فالنظرية حكر على الإنجليز لأنهم سدنة العلم اللدني الحديث الذي سيستبدلون به ثقافة الأهالي البدائية الفجة. وسيستعينون بوسائط مثل طاقم رضا من السودانيين "تُعَرب" لأهلها هذا العلم الصواب. وهذا هو الاستعمار الخالق الناطق. فهذا التقسيم الجائر للعمل يجرد هذه الوسائط السودانية من ملكة الخيال. والخيال استباق للمستقبل. وهو عدة كل حالم بوطن سعيد جديد. فقد قال قريفث مراراً وتكراراً إنه متى ما التأم شملهم كان الإنجليز هم الذين يأتون بالأفكار الجديدة أو الحديثة. ومن ثم يختبرون نفعها من تجاوب الطاقم السوداني معها ثم من تعليمهم الفعلي لها بالتجريب في الفصل وترجمة المادة عن الإنجليزية. وكرر هذا التبخيس للسودانيين مرة أخرى بقوله

إن الخواجات هم الذين يأتون عادة بالأفكار للمادة التي سيتجاوب معها التلاميذ ويحددون المستويات التي سيبلغونها بفضلها بينما يقوم السودانيون بتجريب تلك الأفكار. واستثني حالات المحاضرة في بعض الكورسات والمحاضرات العامة التي انعكست فيها الأدوار وتولى المعلمون السودانيون زمام الأمر. والسبب في انقلاب الأدوار هو أنه كانت تلك المحاضرات تلقى بالعربية كما كان بوسع السودانيين إجلاء الغموض بالرجوع إلى ثقافتهم الدينية أو الفولكلورية أو المشاعر الوطنية المستقبلية. وهذه إحالات مستكرهة من الأجنبي. ويبلغ قريفث في إلحاحه لتوطين السودانيين بمنزلة "الفعَلة" في بناء رضا حداً معيباً. فقد قالها صريحة إنه ليس بوسع السوداني تخيل البدائل لفكرة فسدت في التطبيق. وأضاف في موضع آخر أن الإنجليز هم الذين كانوا يقترحون الأفكار المقصود بها إثارة اهتمام التلاميذ وحفز عقولهم. ومن الجهة الأخرى اكتفى السودانيون بالتنبيه إلى غير الملائم في الخيارات الإنجليزية لأنهم "بالطبع لم يكن بوسعهم في غالب الأحيان اقتراح مادة يستبدلون بها المادة موضع مؤاخذتهم." فتأمل هذه القسمة الضّيزى.

وأبلغ مثل على هذه القسمة الضيزى "زلفة لسان" من قريفث ذات يوم. قال مرة في مناسبة أخلى المنصة فيها لنائبه في عمادة المعهد السيد عبد الرحمن علي طه قائلاً: "لقد جرت العادة أن يكون السيد عبد الرحمن بوق المعهد ولذلك أطلب منه أن يتكلم نيابة عني وعن المعهد". فوقف عبد الرحمن وشكر العميد على الفرصة وزاد "ولكنني أرجو ألا يكون في ذهنه عندما أشار إلى أنني بوق المعهد بيت أبو الطيب المتنبيء:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول"

لا أعرف إن كان قريفث توقع أن تخرج عليه هذه الثقافة النبيهة جملة واحدة.

عبد الله الطيب: بخت الرضا بغير عين الرضى

تمنيّت دائماً أن أقرأ للبروفسير عبد الله الطيب كتاباً لم يخطه ولم يعد بالطبع ممكناً بعد رحيله. وهو كتاب عن منهج معهد بخت الرضا الذي تأسس بمدينة الدويم على يد السيد قريفث في ظل الاستعمار عام ١٩٣٤. فقارئ البروفسير لن يخطئ إشاراته السلبية جداً للمعهد من جهة كتاب الأطفال، الذي يبدأ به تعليم العربية للتلاميذ، لمؤلفه سكوت ناظر كلية غردون على عهدها كثانوية بين ١٩٣٧ و١٩٤٤ ثم تولى إدارتها في أوائل سنوات تحولها كنواة لكلية الخرطوم الجامعية. وقد وضع كتاب الأطفال وتبناه معهد بخت الرضا. وقد إتبع فيه الطريقة التحليلية في تعلم اللغة التي تجعل القراءة تابعة لتعليم التهجي والكتابة من جمل سماها عبد الله الطيب ب "المستكرهة" مثل "الجمل جمل حمد". وهي جمل مصطنعة بلا بركة. ويعني عبد الله الطيب بالبركة أن تكون للعبارة جذور في لغة المنزل وروح الثقافة كما سنرى. وقال عبد الله الطيب إنه اعترض على الكتاب وطريقته أيام كان يعمل بالمناهج ببخت الرضا بين سنة ١٩٥١ و١٩٥٤. وقد دبّج مذكرة بث فيها أوجه فساد الكتاب. ثم انشغل بعمل آخر غير أنه ظل يلفت النظر إلى سوء الكتاب وضرورة الاستغناء عنه. وسيكسب ثواباً من يعثر على مذكرة البروفسير هذه وينشرها على الملأ.

من رأي البروفسير أن التعليم قد أصابه "خلط عظيم" من غريفث أول مدير لبخت الرضا لتغريبه التعليم عن بئية الطالب. وهي عاهة لا مناص منها في تعليم يضعه مستعمر منقطع عن روح المجتمع وقيمه. فالمستعمر لم يرد من التعليم تربية الناشئة تربية تثقفهم وتقومهم بل المطلوب أن يتوسل به الطالب إلى المكانة والجاه عند المستعمر. وقد اشتكى الغردونيون أنفسهم من بؤس تعليمهم مراراً حتى وافقتهم على ذلك لجنة دويلار التي وفدت في ١٩٣٧ لتقصي حال التعليم في مستعمرات بريطانيا. وقال البروفسير عن كتاب الأطفال إنه سمج خال من الروح وما من شك أن إثمه أكبر من نفعه. ولم يفصل البروفسير هذه المسألة الجليلة تفصيلاً تربوياً مقعداً. وظل يلوح بها في مقالات في ١٩٧٣ و١٩٨١ وفي ثنايا كتابه العذب "من حقيبة الذكريات" تلويحاً لا يشبع الظامئ لمعرفة أفضل ببخت الرضا. وتمنيت أن لو أحاط بالمسألة في أثر مبذول للتربويين حتى يكفوا

عن هذا العبادة القائمة على قدم وساق لرضا. فقد أحاطها التربيون بهالة القداسة والنوستالجيا (التشوق الكاذب أو المغرض) تفاقمت فيه ذكريات مرابع الصبا تفاقماً عطل النظر في رضا وجفف النقد لها وانكسرت صُحُفه. وجاء تمام القداسة لرضا بعد أن اعتدى عليها انقلاب مايو وبخسها بلا جريرة واستنسخ خبرة أرض الكنانة في تبويب سلمه التعليمي في ١٩٧٠ بلا رشد مجتراً لا مبدعاً. وأخرج خريجو رضا ومحبوها أثقالهم من الذكريات عنها شعراً ونثرًا. ويا لثأرات رضا التى لم تهدأ حممها إلى يومنا هذا. فلو استصحب التربويون كتاباً مرشداً من علم من أعلام التربية مثل البروفسير لكفوا عن التشيع غير الحسن لرضا وأرسوا التربية السودانية على ميزان يقيها شر "الثورات" المباغتة والمغرضة التي صارت ديدن الزاعمين إصلاح التعليم.

أما سكوت فهو عند البروفسير من أهم رجالات مارسوا التعليم في السودان الحديث ووصفه في كتابه " من حقيبة الذكريات" بالتجديد وبأنه ذو ثورة وصاحب أفكار. وجاء بسيرته بين الطلبة واختلاطه بهم واطلاعهم على شئ من الفكر الفلسفي يريد أن يهز به ساكن مسلماتهم. وهو مع ذلك عميق الايمان بتفوق حضارة قومه على حضارة العرب والمسلمين مع إعجابه بما انطوت عليه هذه الحضارة من مقاومة. وكان عارفاً بالعامية والفصحى. وألف كتاب "الأطفال للمدارس الأولية" وحمل على تدريسه المشرفين على اللغة العربية ومدرسيها ببخت الرضا. وقد أعجب بمنهج الكتاب العالم التربوي المصري عبد العزيز عبد المجيد. وكان مدرساً ببخت الرضا، وكتب كتاباً مميزاً عن التربية في السودان. وبلغ من إعجابه بكتاب سكوت أنه صنع كتباً على نهجه انتشرت إلى بلدان العرب. وقال البروفسير: "فانتشر داء كتاب الأطفال الذي صنعه مستر سكوت في بلاد العربية أجمع." .

إتبع سكوت في كتابه الطريقة التحليلية في تعلم اللغة كما تقدم. وهي طريقة خلت من البركة في رأي البروفسير. ويعني بالبركة أن تكون للعبارة جذور في لغة المنزل وروح الثقافة كما تقدم. وللحصول على البركة في تعليم اللغة للتلميذ يرى البروفسير صواب العودة عن كتاب الأطفال إلى طريقة الخلوة في تعليم اللغة العربية. فطريقة الخلوة عنده تجمع بين المذهب التحليلي الذي يستذكر به التلميذ الحروف وحركاتها، أي جزئيات اللغة، ومذهب التركيب المستمد من روح إدراك الجمل والكليات قبل انصراف التفكير إلى تبين الجزئيات. ففي الخلوة يلقن التلميذ الحروف وحركاتها تلقيناً على الرمل أو اللوح بغير احتفال بالتهجي أو الكتابة. ثم تأتي المرحلة التالية وهى الإملاء أو الكتابة من نصوص قرآنية. وهنا

موقع البركة لأن التلميذ لا يخضع لجمل مصنوعة بل يتلقى العربية عن طريق أميز نصوصها وأكثرها سحراً. وقد سخر البروفسير سخرية مرة من جملة مستكرهة كانت بكتاب مطالعة درسه هو بالكتاب. وكانت الجملة هي "أين الفيل يا خليل؟" وقال إنهم قرؤوا الكتاب ببلد غير ذات فيل ولا حديقة حيوان. ولم يروا الفيل إلا في صورة مصاحبة للدرس. وقد سمعت هذا النقد لكتب المطالعة السائدة من أبناء قرىً لم ير أهلها "الجمل جمل حمد". وهكذا .

وفصّل البروفسير برنامجاً متدرجاً لتعليم العربية على طريقة الخلوة. فهو يرى أن يبدأ تعليم الصغار اللغة العربية قراءة وتهجية إملائية. وهو تعليم يبدأ في سن الخامسة لا السابعة كما هو الحال. ولا غرابة. فقد سبق الموسرون في المدن إلى دفع صغارهم قبل سن السابعة إلى مدارس الإرساليات النظيفة المظهر مع أن الغالب فيها إيثار التبغيض في الإسلام. وجاء البروفسير بفكرة غاية في الثورية من حيث المادة التي ينبني عليها هذا التعليم الباكر للطفل. فقال لنعلمهم العربية من طريق الأغاني البسيطة والأحاجي والقصص الديني. وفي المرحلة التالية يتعلم التلميذ قصار السور والأحاديث. ويحفظ الشعر متى بلغ الثامنة. ونبه إلى تحاشي تبسيط الشعر له. ولربما كان في ذهن البروفسير تلك الأناشيد "المستكرهة" مثل: "أشرقت شمس الضحى في السماء الصافية" أو "لي قطة صغيرة". وقال إن ذهن الطفل في هذه السن قابل لتلقي الشعر الجيد. ثم يمضي البروفسير بمنهجه في مراحل التعليم المتقدمة يحفظ فيها التلميذ القرآن تبركاً ولتقوية ملكته البيانية. وأراد البروفسير من مقرره هذا أن يكون التلميذ في سعة من اللغة وأن يحبها ويألفها إلفة تُورثه ثقةً في تعلم العلوم العصرية تعلم اجتهاد لا استخذاء. ومن رأيه أن هذا المنهج يتيح للطالب المسلم أن يتلقى حظاً كبيراً من القرآن لا يتوافر له في مقرر الدين الموضوع. وهو يريد بهذا ألا يكون حفظ القرآن قاصراً على طلاب المعاهد العلمية وما شاكلها مما يرسّخ ثنائية التعليم. وألا يكون الحفظ عاراً نحرّض ضده بوصف كثير الحفظ بـ "الكباب". فلم يتخل الغربيون عن الاستكثار من ملكة الحفظ حتى وهم يبخّسونه لنا ويصورونه كقرين للتخلف. فهم يريدون لنا أن نحفظ الإسبلينق (التهجية) لمفردات لغتهم عن ظهر قلب تحت تهديد لعلعة السياط ولكنهم ينفرون من الحفظ في ما عدا ذلك مثل استظهارنا للقرآن والشعر العربي.

لقد جاء البروفسير بمفهوم ثوري عن البركة في التعليم. وهي بركة تنجم عن تناغمه مع المجتمع. وهو مفهوم يرى أن في مجتمع الطالب ثقافة صالحة تَكَيف بها الطالب قبل بلوغه عتبة المدرسة. وواجب المدرسة أن تبدأ تعليمه من حيث

وقف المجتمع . وهو مفهوم على خلاف جوهري مع مبدأ بخت الرضا كما فصله قريفث في كتابه عن تجربته في ذلك المعهد. فقد قال إنه اتضح له بخلطته بالتلاميذ السودانيين أن خلفيتهم الثقافية والبيئية محدودة. وتبعاً لذلك فمناهج بخت الرضا قد جرى تصميمها لمدرسة غنية في مجتمع فقير في الثقافة. ونتحدث عن مفهوم البركة وتبخيس قريفث لثقافة التلميذ السودانى في المرة القادمة.

بخت الرضا: اللغو الاستعماري

كنت أدوز أجمع نصوص التراث من فرقان الكبابيش في الستينات ومن قرى الرباطاب في الستينات والثمانينات أو من أحياء المدن في أغلب الوقت. وإذا عرجت على المدرسة الأولية أو الابتدائية لا أجد لهذه النصوص صدى بين جنباتها برغم قيمة تلك المادة التربوية والذوقية الفنية والتاريخية. فالواضح أن المنهج الدراسي، الذي تأسس في معهد بخت الرضا التربوي كما رأينا في مقدمة الكتاب، يفترض أن التلميذ متى قطع عتبة المدرسة أصبح لوحاً ممسوحاً من كل معرفة سابقة مستمدة من نطاق مجتمعه الصغير. وفي غياب هذه المعرفة تولى المقرر المرسوم حقن الطالب بمعرفة حديثة نافعة أو تجريعها له. فجلية الأمر أن المدرسة لم تر في هذه المعرفة ما يستحق التوقف عنده أو تضمينه في مقرراتها. فهي في نظر المستعمرين (ومن تبعهم بغير إحسان لاحقاً) لون من طمطمة البدائيين وخرافاتهم وترهاتهم التي طوى المسافات طياً ليحررهم منها بقوة السلاح وليتدرج بهم على مدرج الرقي والحضارة.

ووقفت على بعض النيات والمقاصد من تعليم بخت الرضا من كتاب للسيد قريفث اسمه "تعليم قطب رحاه المعلم" (١٩٧٥) الذي هو تجديد لكتابه "تجربة في التعليم" (١٩٥٣). وهي كتب عن تجربته في تأسيس معهد بخت الرضا في ١٩٣٤ ونظرته في فلسفته ومناهجه بوصفه العميد الأول له منذ إنشائه حتى ١٩٥٠. وسبق لنا معرفة رأى عبد الله الطيب في خدمة قريفث للتعليم إذا قال إن التعليم قد أصابه منه "خلط عظيم". وربما صح لنا أن نستصحب كلمة عبد الله الطيب هذه معنا في تقويم بخت الرضا بعد أن حرقنا بخور الند والطلح في معابدها وحججنا إليها في أيام ذكراها وذرفنا الدمع السخين على طللها ورسومها. وسنجد أن عبد الله الطيب لم يفارق الحق في تقويم بخت الرضا وإن قصر دون موالاته. فهو لم يلح في نقد بخت الرضا باستقامة في كتاب مرقوم مبذول لأهل التربية بل ظل يعيرها نظرات ناقدة عجلى ثم ينصرف إلى أموره الأخرى. وتفاقم توقير رضا وتمجيدها -شعراً بالذات- حتى كساها بطبقة غليظة من الصدف العازل استحال معها نقدها وتقويمها.

يخرج القارئ لكتب قريفث بأن المدرسة الأولية انبنت لتكون المؤسسة الغنية في المعارف لتعليم مجتمع فقير في الثقافة. وقد اتخذ هذا الفهم صورتين. أما الصورة الأولى فهي التركيز على المعلم وتغذيته بالعلم الصحيح والتدريب الناجز لأنه سيدرس طلبة جاؤوه من مجتمع بدائي كاسد لم يجعل الله نصيباً له في الفنون والعلوم. أما الصورة الثانية فهي تعليم هذا التلميذ كلوح خال من كل علم سابق. وهذا سوء ظن بما جاءهم به التلميذ من ثقافة مجتمعه. وقد اضطرت بخت الرضا لاصطناع مادة التعليم اصطناعاً للتلميذ لتعوضه عن فقر بيئته فى المعرفة. وهذا ما سماه عبد الله الطيب بالعلم المستكره (أي غير الميسّر أو المبذول) مثل تعليم التلميذ اللغة العربية بجمل نكراء مثل "لمس الولد الأسد" في حين كان بوسعهم تعليمه التهجي والإملاء بنصوص ميسرة من القرآن كما ذكرنا قبلاً.
ويبدأ التركيز على المعلم بوصفه "ليمونة في بلد قرفانة". فالمعلم في نظر قريفث إذا مشى إلى الريف دخل في مجاهل الجهل والخرافة. وسيتوحش إلا من صحبة تاجر القرية الذي ربما فك الخط وكان له بذلك أنيساً. ومنعاً لهبوط معنويات مثل هذا المعلم في فيافي الريف اتجهت بخت الرضا لرفع معنوياته بحيل مستفادة من الخدمة العسكرية. فقد ركز قريفث على أن يكفل للمعلم الأجر المناسب وفرص الترقي والابتعاث. وهذا رفع لمعنويات المعلم من الخارج. أما من جهة رفعها من الباطن فمن رأي قريفث أن يُمتّن فيه الحس بالزمالة المهنية. وأراد بذلك أن تنمي بخت الرضا فيه الانتماء إلى مهنة التعليم تنمية يحرص بها ألا يخذل زملاءه وتوقعاتهم منه. كما أرادت تمتين سلطته التربوية ببناء الثقة في مهارته بناءً يتقبل به النقد الرفيق من زملائه وحتى ممن هم دونه. واتجهت بخت الرضا لتجديد ثقة المدرس بنفسه بواسطة التدريب خلال الخدمة. ولا تثريب في هذا كله مما هو معمول به في تدريب المهنيين كافة لولا أن الفلسفة منه كانت هي تدجيج المدرس في حملة لتعليم قرى السودان وأريافه المظنون فيها الجهل وانقطاع التربية.
قريفث سئ الظن جداً بثقافة السودان. فقد قال إنه بخلطته للتلاميذ السودانيين اتضح له أن خلفيتهم الثقافية والبيئية قاصرة كما سبق القول. فهو معترف أن للسودانيين الشماليين تقدير واسع لفن الشعر. فهم في مدينتهم وقريتهم يهتزون طرباً للعبارة الشعرية البهية. غير أنه لم تُنمَّ وسطهم فطرة للفنون التشكيلية أو الموسيقى أو الخزف. فالناس تغني وترقص وتضحك للنادرة. غير أن تلك الفنون المذكورة ظلت بغير تنمية واستحسان. وقال ربما كان السبب هو نظرة الإسلام الترابية للحياة أو ربما كانت حياة الشظف التى عاشها السودانيون فلم ينهض منهم من يرعى تلك الفنون وينفق عليها فعل الأوربيين. وقال بأن الناس تتعنت تجاه

الموسيقى. فمبتغاهم حتى في الغناء هو الكلمة لا الميلودي أو اللحن. وقد حكى عن نجاحهم الباهر الباكر في تعليم الرسم والموسيقي ببخت الرضا وهما علمان اعتقد أنهما غريبان إلى حد كبير عن البيئة.

وأحكام قريفث هذه مجانية. لم يصدر فيها عن بحث جدي في ثقافة السودانيين. فهو مثلاً يقول إننا لا نقيم وزناً للموسيقى ونطرب للكلمة دونها. فلو أرخى قريفث أذنه للعازف على الزمبارة بخلاء الدويم لعرف أن هناك فن اسمه "اللود" وهو محض موسيقي ناهيك من أن الطرب للشعر العربي هو طرب لموسيقى الوزن المجرد كما هو طرب للمعنى. وبالطبع لكل ثقافة مناطق تركيز وأجناس مفضلة في الفنون والآداب. ولا يجعل هذا ثقافة أغنى من الأخرى أو أفقر. وكنت سمعت كلمة نافذة في هذا المعنى من أحدهم. قال إن أوربا عرفت الشعر الملحمي مثل إلياذة هومر وغيرها. وهذا حسن ولكنها لم تعرف شعر المعلقات السبع كما عرفناه في ثقافتنا. فهل يجيز لنا ذلك الفخر عليها واسترخاص فنونها؟ ومن جهة أخرى هل كل التعليم المدرسي ينبني على عناصر من مادة سبق للتلميذ التعرض لها في ثقافته الأصل أم أن نقطة البدء في التعليم أن يتهيأ الطالب ليقبل من العلوم ما لم يكن أصلاً في محيطه بفعل شغف غرسته فيه تلك الثقافة الأصل وبواسطة مهارة مكتسبة منها. فإذا افترضنا جدلاً أن بيئة السودان الشمالي قد خلت من فنون التشكيل ألا يمكن رد نجاح السودانيين فيه، بفضل بخت الرضا، إلى شغف للمعرفة واستعداد لها جبلتهم عليه معارفهم الأصلية؟

نتجاوز مِنة قريفث علينا بتعليمنا ما جهله أهلنا من التشكيل والخزف بفضل ببخت الرضا لنسأل عما فعله بعلوم أهل السودان من لغة وشعر. وسيجد القارئ أن ما قاله قريفث عن ضعف بخت رضا في التدريب على هذا العلوم مسيئاً. فقد ساق قريفث عذراً أقبح من الذنب في قعود بخت الرضا عن تعبئة الطاقة التربوية القصوى للانشغال بالشعر وتنمية الذوق له لبناء فن شعري محلي يأخذ بقلوب المتعلمين وغير المتعلمين على السواء. ولم يحسب الرجل أن هذا الذوق الأخذ بمجامع القلوب كان قائماً على قدم وساق آنذاك عند محمد سعيد العباسي والتيجاني يوسف بشير والناصر قريب الله وغيرهم ولم ينتظروا "مِنة" بخت الرضا. أما عذره عن هذا التباطؤ للعناية بالشعر العربي فهو أن الإنجليز ببخت الرضا لم يخطر لهم أبداً أن بوسعهم أو قدرتهم عمل شئ بصدد اللغة العربية. وزاد الطين بلة بقوله إن السودانيين ببخت الرضا أنفسهم لم يكونوا أميز في علمهم بالعربية عن زملائهم الإنجليز بها. فلم يكن بينهم من تدرب في علم العربية تدريباً يؤهله للحديث بسلطان عن شعرها. وقد عاب قريفث على الحكومة أنها لم

تعين بالمعهد إنجليزياً من المحسنين للغة العربية ليعتني بها في المنهج. وكأن تعليم لغة السودانيين الشماليين وشعرهم مما يستعصي على غير الإنجليز. ويتبيّن لها هنا منطق "دق الإضينه واعتذرلو" حين سعى قريفث إلى تحويل نقمة إهمالهم تعليم العربية وآدابها إلى نِعمة. فقد قال إن بؤس طاقم رضا الإنجليزي في العربية ربما أعطى السودانيين حساً بالميزة على الإنجليز لإحسانهم شئ يتعثر فيه حكامهم. وقال إن هذا الشعور بالميزة على مَن استعمروك هو ما يحتاجه السودانيون ممن ينشدون لأمتهم الاستقلال.

وهذا هراء. وقد جاء الأكاديمي الهندي الدكتور هومي بهابا، من جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة، بمصطلح سماه "اللغو الاستعماري". وبه ينبه على تناقض جوهري في الاستعمار. فهو يقع من دولة كبريطانيا يتمتع أهلها أنفسهم بالديمقراطية ولكنهم متى استعمروا بلداً حرموه من طيبات الحريات التي يمارسونها ببلدهم من انتخاب وترشيح وتصويت وحرية تعبير وشفافية وهلمجرا. ويجر هذا التناقض المستعمِرين إلى سوء منطق وفساد حجة لا برء لهم منها. وهم يتورطون في لغو وكلام فارغ (أو ساكت) كثير لسد هذه الفجوة الشاغرة بين ديمقراطيتهم المسؤولة وبين استعبادهم الناس ممن ولدتهم أمهاتهم أحرارا. وقريفث فعلها بمنطقه الكاذب عن تقاعس رضا في العناية بذوق الشعر العربي. وهتر قريفث الهاتر، في عبارة شهيرة للمرحوم طه حسين الكد.

بخت الرضا: دمع العين يزيل ألمي

(الي روح روبن هودجكن من تيم بخت الرضا الباكر)

حمدت الله ان قامت جامعة في بخت الرضا حتي يرتاح القاريء من المقالات التي بكت معهد بخت الرضا واستبكت الناس عليه بعد حل نظام نميري له. وكنت افرغ من قراءة الكتابات فإذا هي نعي أجوف من صدي ذكريات لا تظفر منها بفكرة ثاقبة عن قيمة المعهد وانجازه. ووجدت في هذه المراثي معرضاً لعاهة ثقافية في الصفوة التي اتفق لها أن الاحتجاج السياسي المتباكي مما يعفيها من النظر التحليلي في فكرة ومآل المؤسسة. وترتب علي هذا ان تحولنا بالمؤسسات الي عتبات مقدسة صماء لا ينفذ النظر اليها. فعلي كثرة ما قرات من نعي لرضا لم أقع علي إشارة ذكية الي كتب قريفث،عميد المعهد الانجليزي، عنه. وقد قرأت له ووجدت فلسفة المعهد سيئة الظن ببيئة التلميذ السوداني.

خطرت لي هذه الملحوظة عن أزمة صفوتنا وأنا اقرا نعي روبن هودجكن الذي هو من أفاضل الانجليز المربين في بخت الرضا. وقد درس جيلنا عليه جغرافية السودان . . . بالانجليزي في أولي ثانوي. وكنت قرأت له افضل تحليل لديناميكية بخت الرضا في ورقة قدمها لمؤتمر بجامعة درهام عام ١٩٨٢. وقد رد هودجكن سداد تقليد المعهد التربوي الي التقاء نهرين ثقافيين هما التقليد التربوي الاسلامي السوداني والتقليد الانجليزي بتوضيحاته. فقد قال إن للحكمة ومتانة الشخصية اللذين جاء بهما السودانيون الي بخت الرضا جذور في عقيدة الاسلام نفسها. فمن يقرأ ما كتبه بابكر بدري عن تعليمه في سبعينات القرن التاسع عشر عرف كيف ينطبع المسلم بالدين ويتربي به. فقد تلقي بدري العلم من بين ٢٠٠ حواراً في الخلوة علي يد ولي ما علي ضفاف النيل الأزرق. وقال هودجكن إنه صحيح أن

كان للفكي سوطاً طويلاً ولكنه كمعلم اشتمل علي ما هو أميز من السوط. فقد احاطت به هالة من قداسة أو الكريزما. وأشار الي قول إرنست قلنر، الكاتب البريطاني، الداعي الي أن الفهم الأفضل للمجتمع المسلم يتأتي من النظر اليه في طابعه المزدوج: في معاش أهله الرعوي وإلمام ثقافتهم بالكتابة وفنونها في باكر عهدها. وقال هودجكن أن قلنر نسي مع ذلك ان يذكر ضمن خطته لفهم المجتمع الاسلامي طاقة كبري للدين وهي أخذه بناصية الناس وتغيير حياتهم.
وتطرق هودجكن الي النهر التربوي الأجنبي الذي تلاقح عند بخت الرضا. فقد جاء الانجليز الي بخت الرضا بمسيحية ملطفة ،علي الريحة، ولكنها نفّاذة مؤثرة. وقد خالط هذه المسيحية أثر من ثقافة الزمن ارتكزت علي ذكريات الجيل الانجليزي ومعاييره الخلقية المؤطرة في حنين شفيف للماضي وهزء بالثوابت وحزن طبع عشرينات القرن الماضي
وقال هودجكن إن الهند أثرت في تقليد بخت الرضا التربوي. والذي جاء بهذا الأثر الهندي هو قريفث الذي عمل في الهند وأقام في "أشرام" وهو معبد يدار علي نهج غاندي الروحي. فتأثير منهج غاندي في النضال السلمي غلب في السودان أيضاً. وقال هودجكن إنه ما يزال يحتفظ بنسخة هلهل من كتاب "حياتي" لنهرو استلفها وقرأها طلاب عديدون في السنة الأولي الجامعية بكلية غردون. وقال إن هناك تأثيرات أخري علي بخت الرضا ولكنها سالبة مثل ضعف حظ معشر الانجليز بالمعهد في اللغة العربية. وقال انه كان حتي للحرب الأهلية الأسبانية (١٩٣٦) ووقائع اخري في الغرب أثرت في تكوين بخت الرضا.
لم يذرف هودجكن دمعة واحدة علي بخت الرضا ولكنه ذرف فكراً دقيقاً محيطاً من الذي يحبب الاشياء الي الناس.

بخت الرضا: مدرسة غنية لمجتمع فقير

الاستعمار محض ثقافة كما قال أحدهم. وهو كذلك لأنه محض استعلاء وقوة وجبروت. فهو مهمة تمدينية ونعني بذلك أنه سيء الظن بثقافة مَن استعمرهم ممن يسميهم ب "الأهالي". فهم في نظره همج وثقافتهم همجية. وهذا هو السبب الذي انتدب به نفسه بنفسه لتهذيبهم في مهمة سماها "تَبِعة الرجل الأبيض" يريد بها استنقاذ هؤلاء الأهالي بتفريغهم من ثقافتهم الفاسدة وملأهم بالثقافة الغربية التي عليها القيمة. فقد قال السيد ولفويتز، نائب وزير الدفاع الأمريكي السابق ومدير البنك الدولي، إننا لا ينبغي أن نتحسب لثقافات الآخرين ونَدَّعي لها حرمة. فنحن من يعطي الثقافة للراغبين ونمليها. فنحن مستودعها ومالك حقوقها الفكرية.

ومتى استعمر الطاغية ذهن الأهالي وخيالهم بمدنيّته ضمِنَ انقيادهم له. فالأهالي مشاغبون ولن يقوى على إخضاعهم مهما أوتي من القوة إلا إذا توسّل إلى ذلك بكسر شوكة تمردهم الذي يبدأ في الخيال والعقل. وهذا ما يُعرف بين الدارسين لظاهرة الاستعمار ب "الهيمنة". فليس بوسع الاستعمار أن يلجأ للقوة في كل وقت وحين. فلفعل القوة حدود مهما كان. ولذا كان مسعى كل جبار شقي أن يظفر بالأفئدة والقلوب حتى تحصل له الهيمنة. فالهيمنة قبول بالمستبد على علاته ورضى به بتأثير من شرعية اصطنعها لنفسه اصطناعا تعفيه من اللجوء للقوة لأنها لن تجدي في المدى الطويل. وإذا سمعت الآن عن حملة الولايات المتحدة لإصلاح التعليم في العالم الإسلامي فاعلم أنها تريد بذلك الهيمنة لأنها تعلم أن القوة الجبرية مجدية إلى حين. فقد شاهدت السيد جيمس ولسلي، مدير السي آي أي على عهد كلينتون، على التلفزيون يؤيد دعوة الرئيس بوش لفطم بلده عن بترول الشرق الأوسط. وقال إننا بإدماننا هذا النفط إنما نمول طرفي الحرب وهما أمريكا، التي هي نحن، والإرهابيون. وزاد بأن أمريكا تدفع ١٢٠ مليون دولار لهذا النفط سرعان ما تتسرب إلى مدرسة في باكستان تعلم طالبانها كراهة أمريكا

"كراهة العمى". وهذا هو أصل المسألة في حملة محو أمية المسلمين الأمريكية الناشطة. فغايتها أن تكف مدراسنا عن تخريج من يقول "بغم".
قال عبد الله الطيب، عالمنا الفذ، إن تعليم بخت الرضا، وهي منشأة استعمارية، تعليم بلا بركة. وهي إشارة لحديث للنبي عليه أفضل الصلاة والسلام تعوّذ فيه من علم لا ينفع. وإذا نظرنا في نفع التعليم، الذي التزم خطة بخت الرضا حتى بعد الاستقلال، رأينا صدق كلمة عبد الله الطيب. أليست شكوانا صباح مساء من الصفوة هي حكم يصدر عنا يومياً على فساد التعليم ومقاصده في بلدنا. وقد بلغ التعليم من السوء حداً وصف فيه الجنوبيون نزاع الحركة الشعبية جناح توريت (قرنق) ولحركة الشعبية جناح الناصر (مشار) ب"حروب المتعلمين" . وقد تعانف المتعلمون في تلك الحروب وأفسدوا في الأرض ولذا ميزها الأهالي عن حروبهم "القبلية" الفيها الرحمة.
وقد خلا تعليمنا من البركة لأنه تأسس في استراتيجيته ومادته وطرائقه على خلو السودانيين من كل معرفة أو موهبة. وقد راعني ما قرأته في كتاب قريفث، مؤسس بخت الرضا، عن فقر بيئة التلميذ السوداني حتى احتاجت المدرسة أن تبدأ معه من الصفر. وقد أعجبه نجاح بخت الرضا في جعل فسيخ محيط الأهالي عديم التربية إلى شربات. فقال إنه كان يشاهد بفخر تلاميذ مدرسة بخت الرضا الأولية في حصص الجغرافيا يتبعون خريطة بأيدهم ليبلغوا كنزاً مدفوناً في موضع ما. امتنّ قريفث بذلك علينا بنسبة ذلك كله إلى شغلهم ببخت الرضا. وربما لم يدر قريفث أن من بين هؤلاء التلاميذ من نشأ في محيط بدوي وغير بدوي يحسن قيافة الأثر ويتّبع أثر الناقة المسروقة أو الضالة بحرفية ونباهة، ولهم في سداد ذلك قصص بمثابة الخوارق. ومهما يكن فقد قال عبد الله الطيب إن التلاميذ، العارفين بمعالم الخريطة بحكم مواطنتهم، كانوا يبلغون الكنز بغير حاجة للخريطة. أي أنهم كانوا "يخرّمون" للموضع المعروف لديهم ثم يكذبون في تقريرهم عن كيفية بلوغهم. و"التخريم" هو غاية الثقافة نختصر به الطريق للحق أو الأهداف متى ما أحسنا معرفة قسماته ومناحيه.
واعترف قريفث بأن بخت الرضا لم تنجز في تعليم اللغة العربية، وهي خبرة الطفل الثقافية الباكرة ومستودع حيله كلها، شيئاً مذكورا. واعتذر عن ذلك بأعذار أقبح من الذنب كما رأينا في حديثنا السابق. ومن ذلك قوله إن وزارة المعارف لم تعين لهم إنجليزياً ذا شنب محسناً للعربية لكي يضع لهم المناهج المبتكرة لتعليمها. ولكن كان بينهم السيد سكوت، مدير كلية غردون، الذي وضع كتاب تعليم العربية للصف الأول بالمدرسة الكتاب. وقد وصفه عبد الله الطيب بالسماجة وبأن إثمه

اكثر من نفعه لأنه صدر ممن لا سبيل له، ولا مزاج، لمعرفة دقائق التربية أو الثقافة في بيئة الأهالي. وتلك الدقائق هي التي تثمر البركة فيتمثلها الإنسان فيكون بالتعليم بشراً سويا لا أفنديا فكّ الخط وقال "حرّم". وللحصول على البركة في تعليم اللغة للتلميذ رأينا عبد الله الطيب يقترح العودة إلى طريقة الخلوة في تعليم اللغة العربية كما رأينا في كلمة سابقة. ولم تحدث هذه الرجعة إلى يومنا هذا. ولكن قريفث نفسه عاد في كتابه الذي صدر في ١٩٥٣، ثم منقحاً في ١٩٥٧، يعترف بأنهم قصروا في تعليم اللغة العربية مهملين المهارات التي يكتسبها التلميذ من تعليم الخلوة. فقال إنهم نجحوا في جعل التلميذ يفهم ما يقرأ من الكتب ولكن تعليم الكتاب الحكومي، الذي سبق قيام بخت الرضا، وهو مستمد من الخلوة، تميز عليهم بسداد حرفة الإملاء والقراءة بصوت عال وجمال الخط.

وربما كانت أكثر أفكار عبد الله الطيب ثورية هو دعوته للحصول على البركة من التعليم في تدريس العربية عن طريق الأغاني البسيطة والأحاجي والقصص الديني. وهذا عرفان بالقيمة التربوية للخيال الشعبي نادرة. فلم ير حتى السيد محمد أحمد محجوب، منظر الثقافة السودانية ورائد الوطنية في الثلاثينات، نفعاً من الأحاجي. فقد طغت عليه الوطنية الفصحى ليقول بأنه علينا أن نكف عن حكاية قصص الغيلان والسعالي لأطفالنا وأن نربيهم على القصص الوطني مثل سيرة المهدي وعثمان دقنة. وتبنى المحجوب من غير أن يدري رأي الاستعمار فينا كرواة قصص بدائية. والمعلوم أن هذه القصص المدموغة بالبدائية ربما كانت هي الفن العالمي الوحيد الذي نملكه بالبداهة. فهي تنويع محلي بديع على الحكايات الشعبية العالمية التي صدرت الفهارس بمواقع انتشارها وصورها المختلفة مما برع فيه أستاذنا البروفسير حسن الشامي أستاذ مادة الفلكلور بجامعة إنديانا بالولايات المتحدة. فقد درس الشامي كل الحصيلة السودانية من الأحاجي وبوّبها في موقعها من فهارس الحكايات الشعبية.

ومن الجهة الأخرى فقول عبد الله الطيب عن بدء التعليم بالحكاية الشعبية يكشف عن اتحاد المعرفة بالعربية في هذا العالم الجهبذ. فقد اشتغل أكثرنا بوجهه الفصيح الواقف على دقائق التراث العربي منصرفين عن وجهه العامي شديد الشغف بأدب العامة. فإتقان اللغة كما تجسد في عبد الله الطيب هو شراب طهور من ينابيع غراء باطنة تعقد فيه العامية الخناصر بالفصحى. وهي ينابيع لا الفصحى فيها هي اللغة ولا العامية هي لغو من فضول القول. فعبد الله الطيب لم يكف عن لفت النظر إلى وحدة هذه اللغة في هذا الينبوع الفطري. فما أن يأتي بكلمة عامية إلا وفصّحها بيسر مدهش. واضرب بذلك مثلاً ، فحين تقلي الأم طفلها وتقول

"شعرك فيه صواب" فهي لم تخرج من العربية إلى إقليم آخر. فصواب هي "صؤاب". وحين نقول لمن يشاغب حين ينهزم في اللعب "حنبك" فهي "حنبق" أي "التوى وتلزج". والحنباك كثير الالتواء لزج لا ينفك من الرقبة. وقد استحسن عبد الله الطيب قولنا "داير اتبرّد" على "داير استحم" المحدثة بالنظر إلى قول عمر ابن أبي ربيعة المشهور :

زعمُوها سألتْ جاراتها وتعرّتْ ذاتَ يومٍ تَبْترِد

وقولنا "كعب" هي "كأب" قلبنا الهمزة عيناً. وحتى "جالوص" فهي من "الجلس". وهذا غيض من فيض عبد الله الطيب في الكشف عن وحدة اللغة العربية، فصيحها وعاميها، في المنبع قبل أن تتفرق بها السبل. وقد فصَّل الدكتور عون الشريف القواعد التي تفارق فيها العامية في السودان وغيرها النطق الفصيح. بل نجد حتى الفصحى نفسها تخضع لهذه القواعد فتفارق نفسها بنفسها. وتجد ذلك في قاموس عون للعامية السودانية. وقد أعجبتني دعوة الأستاذ عجب الفيا الأخيرة لتعطيل تقسيم اللغة العربية إلى فصحى وعاميّة لفساد مثل هذه الحدود التي تحجب عنا التقاء نهري اللغة في مقرن الوحدة والسحر والتمام. وقد سبق لي الحديث عن اللغة المسرحية بمثل هذا المعني في مقدمة كتابي "السكة حديد قرّبت المسافات".

لقد قبلنا عن ثقافتنا رأياً عن بؤسها من غير خبير ولا مؤتمن. وفرحنا بمدرسته التي زرعها بيننا تهدينا إلى سكة المعرفة مطرحين ضلالاتنا التي نشأنا عليها. والمغلوب على سنة الغالب كما هو معروف. وسننظر كيف رد المغلوب الشاعر محجوب شريف، معلم المدرسة الأولية وظيفة، على لغو بخت الرضا في تجربته التربوية. وهي تجربة نراها في بعض شعره مع أنها بعض ثورته كمعلم. وقد سميتها "بخت الرضا المضادة".

بخت الرضا: الاستعمار وترييف التعليم

إنني شاكر للدكتور حسبو الرسول عباس البشير على تعليقاته الثلاثة بهذه الجريدة على ما كنت نشرته عن معهد بخت الرضا. وقد بدا لي أن أتخير من مآخذه الكثيرة علي كلماتي تلك التي ستفيد، متى ما أدمنا النظر فيها، المباحث حول هذه المؤسسة التعليمية التي لا مهرب من وضع حسنها وقبيحها تحت مجهر البحث. وقد اخترت هذه الإستراتيجية في الرد على حسب الرسول خشية أن يقع بيننا حوار طرشان. فيبدو أننا قرأنا كتباً (أو لم نقرأ) كتباً مختلفة عن بخت الرضا. فمعظم متاعب حسب الرسول مع كلماتي عن رضا نجمت عن أنه قرأ كتاب مؤسسها السيد قريفث الصادر في ١٩٧٥ ولم يقرأ الآخر الصادر في ١٩٥٣. واحتوى كتاب ١٩٧٥ قسماً منقحاً من كتابه الأول وتقويماً لتجربة التعليم الأولي في السودان بعد ١٩٧٠. واستوحى هذه من زيارة قام بها للسودان ولمعهده العزيز في ١٩٦٩ و١٩٧٠. وقد نبّه حسب الرسول إلى هذه المفارقة في المراجع. ولكنه قرر بأمر صادر منه أن المرجع الذي ينبغي أن نأخذ به هو ما صدر في ١٩٧٥. وأنا أخالفه الرأي هنا. فالكتاب الأول عندي أفضل تمثيلاً للعقلية الاستعمارية التي كانت مدار مقالاتي عن بخت الرضا. فهو قريب من تجربة تأسيس بخت الرضا ولم تُشَبّه خبرات ربع قرن، هي المدة بين طبعَتَيْ الكتاب، مر بها قريفث. وهي مدة تغيرت فيها نظرات كثيرة حول الاستعمار ومزاعمه الثقافية المستخفة بالآخرين.

ومع ذلك كنت مستعداً لتفهم حجة حسب الرسول في تفضيله الطبعة الآخرة على الأولى لو كان قد اطلع على صورة الكتاب الأولى ورأى فسادها وكشف لنا عنه. وهذا ما لم يحدث. ولذا يسهل الاستنتاج أن تفضيله للصورة الأخيرة للكتاب هو تحصيل حاصل لأنه لم يقع على الطبعة الأولى. فالتفضيل سعة وتحصيل الحاصل قدر. وودت لو راسلني حسب الرسول، بما بيننا من مودة بل ومحبة، عن طبيعة

مصادري في تقويمي لبخت الرضا. فهذا من نجوى الرصفاء حتى لا نضطر إلى ركوب الصعب من جدل المراجع على صحيفة سيّارة لم تخلق لمثل هذا التدقيق.
أخذ عليَّ حسب الرسول قولي إن بخت الرضا "ريّفت التعليم" في حين أنها لم تقصد سوى "التعليم الريفي". وشتان بين المصطلحين عنده. فالتعليم الريفي على نهج قريفث، في قوله، هو انحياز بالتعليم إلى الريف الذي ينتمي له أغلبية أهل السودان لتطويره من مدخل تنموي للبشر. وأرادت رضا لهذا التعليم أن يكون مساوياً لتعليم المدينة ومختلفاً عنه في نفس الوقت. ولن أتوقف كثيراً عند حقيقة أن قريفث نفسه هو الذي جاء بمصطلح "تريِيف التعليم" في كتابه لعام ١٩٥٣ على صفحة ٩ منه مثلاً؛ بل وجعل "التريِيف" عنواناً للفصل الثالث من الكتاب.
ومع أن هذا قولٌ فصلٌ في الرد على حسب الرسول إلا أنني رأيت أن أهم من ذلك هو دراسة نشأة معهد بخت الرضا في ١٩٣٤ في سياق سياسات الإدارة الاستعمارية بعد فجيعتها في خريجي غردون ومن لفّ لفهم، ممن جاؤوا للوجود بفضل نظام الحكم المباشرة الذي رتبه الإنجليز للبلاد أول مرة. فقد غضب الإنجليز غضبة سكسونية على الجيل الذي أوجدوه من عدم في كلية غردون وجازهم بعَض أيديهم المحسنة لقيامهم بالهبّة الوطنية الأولى في ١٩٢٤. ولقتل فتنة المتعلمين المشرئبين ورجرجة المدن في مهدها تحوّل البريطانيون من سياسة الحكم المباشر إلي الحكم غير المباشر التي وضع أسسها اللورد لوقرد من واقع تجربته الإدارية في شمال نيجريا. وقد استنبط هذه السياسة، المعروفة باسم الاستعمار بأقل تكلفة، بعد دراسته لما تبقى من تقاليد الحكم في خلافة صكتو الإسلامية. وقد عُرفتْ هذه السياسة بينا بالإدارة الأهلية. بل ربما كانت أول البعثات الدراسية في السودان الاستعماري هي تلك التي حظي بها المستر ديفس، المفتش المعروف وصاحب كتاب *على ظهر جمل*، ليقف على ممارسة الحكم غير المباشر في نيجيريا عن كثب.
كانت سياسة الإدارة الأهلية هي "أدَبة" للمتعلمين لخروجهم على من أحسنوا إليهم واحتواء المؤثرات التي حفزتهم لمثل ذلك الخروج. ولم تكن تلك المؤثرات سوى ما أصابوه مِن "مَن تقدّم وتمدّن"، وهو من لبّ المهمة الاستعمارية، جعلهم يتشوقون إلى الحرية والاستقلال.وهذه سنة الله في الأرض. وأرادت الإدارة الاستعمارية بالحكم غير المباشر أن تقيم حِلفاً بديلاً لحلفها مع خريجي المدراس. واختارت هذه المرة التحالف مع الآباء الطبيعيين في الريف كيداً (أو كيّة) لأولادها العاقين. وقد وصف الدكتور محمود محمداني هذه الرّدة الاستعمارية ب "استسلام المستعمرين" أي رفعهم الراية البيضاء دون تحقيق مهمة الرجل

الأبيض، وهي حَمل الأهالي حملاً على الحضارة والتحديث. وليس من حسن التحديث أن تترك الحكم لرجال "القبائل البدائيين" الذين جاء الاستعمار، ابن وافدة البحار، لإنهاء وجودهم وإحلال إدارة مستنيرة مكانهم. وهكذا غلبت على الإنجليز شواغل الإدارة فأداروا ظهرهم للمتعلمين وأهل البندر خشيةً من أن ينقلبوا عليهم. وشمل التريف حتى الشريعة نفسها وذلك بمنح محاكم النظار سلطة النظر في قضايا الأسر بمقتضى الشريعة. وكان القصد من هذا أن تزال المحاكم الشرعية من الريف لأنها من مؤسسات الحكم المباشر وتنتسب إلى تقليد ثقافي مركزي. وقد فصلت هذه المسالة في كتابي "الشريعة والحداثة". وقد بلغ التريف عند المتطرفة من المفتشين الإنجليز حداً أزعج ماكمايكل، السكرتير الإداري للحاكم العام، وقال كفاية بقى. وقال إنجليزي واقعي آخر إنّ بعث القبلية بعد سنوات من الحكم المباشر بمثابة تزييت لعجلات ماكينة خربة.

أما لحظة ميلاد بخت الرضا كحيلة استعمارية في تريف التعليم فقد جاءت بعد إضراب طلاب الكلية في ١٩٣١ احتجاجاً على خفض الإنجليز لمرتباتهم نتيجة للأزمة الاقتصادية العالمية. وهو الإضراب الذي قاده السيد مكي المنا وكان من قياداته السيد الصديق المهدي. وكانت هذه الكلية، والتعليم كما كان في أيامها بعامة، أصلاً موضع ضيق من الإنجليز. ففي تلك السنوات البائسة قلب الإنجليز ظهر المجن للطلاب في كلية غردون. أدَبة تمام. فقد أوسعوهم ضرباً بالسياط وأثقلوا كاهلهم بنبطشيات النظافة لكسر كبريائهم. وهي سنوات وصفها المحجوب وحليم ب" السنوات العجاف" في كتابهما *موت دنيا*. واتجه الإنجليز إلى تجفيف الخريجين في منبعهم بغردون وغيرها فقاموا بإغلاق مدارس وتخفيض أخرى بما لا يسع المجال لتفصيله هنا. وريّفوا الزي المدرسي في الكلية بمنع الطلاب من ارتداء البنطال والقميص الأوربي. وبلغوا في التريف حداً أمروا الخريجين فيه بخلع "الجزمة" الأوربية ولبس النعال القومي "المركوب" ليعودوا بهؤلاء الفتية المارقين إلى أصولهم الريفية المتواضعة ولجم طموحاتهم السياسية. وقد حكى السيد يوسف بدري كيف أرغمه مفتش مركز ما على العودة إلى بيته وارتداء مركوب بدلاً عن الحذاء الغربي الذي كان ينتعله. بل أسرع المفتش إلى المدرسة وأخرج الطلاب في طابور يكشف على أحذيتهم فمن ارتدى "جزمة" أعادوه إلى منزله لينتعل مركوباً. أدبة جد. ومنطق هذه الأدبة سخيف. فقد كان مفروضاً بحسب العرف الاستعماري على كل لابس مركوب أن يخلعه متى دخل على خواجة. أما لابس الجزمة فلا جناح عليه. وقد رفعت الحركة الوطنية عنا هذا الذل ولكن نسياناه غفلة.

ونشأت بخت الرضا في سياق سياسة التريف "الحاقضة" هذه. فما وقع إضراب كلية غردون في ١٩٣١ حتى تكونت لجنة للنظر في أمر الإضراب. ولم يكن الغرض كما قال قريفث نفسه هو النظر في دواعي ذلك الإضراب بل تقليل عدد الطلاب بالكلية الذين تكاثروا طلباً لوظائف الحكومة. ومن ذلك أن بعض ميزانية بخت الرضا كانت مما اقتطعه الإنجليز من ميزانية الكلية. فقد حولت لرضا مدرسة العرفاء بالكلية التي أخرجت معلمين في قامة حسن نجيلة. وقال قريفث إنه كان متوافقاً مع هذه السياسة التي أرادت من التعليم أن يكون موجهاً لمعاش الريف بإكساب التلاميذ معرفة ومهارات صالحة لذلك المعاش وإلهامهم لخدمة مجتمعات القرى. وقال إنهم لم يستشيروا المتعلمين السودانيين في هذا التريف لأن الإداريين البريطانيين كانوا يرونهم جماعة انقطعت عن جذورها عن الريف وقبائله فركبتها أفكار وطنية خطرة. وكان قريفث يعرف جيداً أن تجربة بخت الرضا جاءت مضادة للرأي العام للخريجين.

من النقاط الموفقة التي أخذها حسب الرسول عليَّ قولي إن بخت الرضا مؤسسة استعمارية ثم قولي في نفس الوقت إن الجيل السوداني قام فيها بدور مشهود. وقال إن في ذلك تناقضاً: فكيف يكون لذلك الجيل مثل هذا الدور في مؤسسة مثل التي وصفت. وبالطبع ليس هناك شك أن بخت الرضا مؤسسة استعمارية. فهي قد وقعت لنا في إطار السياسة الاستعمارية التي أجملتُ وصفها أعلاه. فهي لم تكن تجربة في التعليم بل تجربة في الإدارة وضبط الأهالي عن طريق تريف التعليم. ولكنها تجربة تخلقت في بيئة سودانية بما في ذلك جهد الطاقم السوداني الذي جاء به الإنجليز إليها. وهي بالتالي واقعة يسميها فقهاء مدرسة ما بعد الاستعمار ب "النص الخلاسي" أو "المقرَدة" وهي التقليد فعل القرد . فهي خلاسية (خاطفة لونين) لأنها ثمرة خبرتين تلاقحتا في شروط قاسية. ومن بين هذه الشروط المجحفة أنه قد تقرر سلفاً بأن لثقافة المستعمر اليد العليا ولثقافة السودانيين اليد السفلي. هكذا اعتباطاً وبمحض حق الفتح لا غير. ولهذا قال قريفث كما راينا إنه كان للإنجليز الخيال والفكر في بخت الرضا وكان للسودانيين التنفيذ الجيد.

ويتراوح نصيب النص الخلاسي من الإبداع والسداد. فمنه ما هو مجرد "مقرَدة" واستعراض. وما زلت أذكر موظف السكة الحديد في الخمسينات المزهو بالوظيفة وهندامها يمشي كالثمل من فرط العزة بهما. وكنا نسميه نحن كأطفال "قرْضَمة". ومن النصوص الخلاسية ما فيه سحر على القوم وأسر كبير مثل بخت الرضا. ويعكف المحللون من أنصار مدرسة ما بعد الاستعمار على تحليل هذه النصوص لا ليصلوا إلى ميزة في الاستعمار كناقل لثقافة كونية كما فعل

حسب الرسول. فمدرسة ما بعد الاستعمار كارهة جداً للاستعمار بل تعيب على رواد الحركة الوطنية من مثل جيل الزعيم الأزهري أنهم لم يكرهوا الاستعمار جد. فمن مآخذهم على الحركة الوطنية أنها وقفت في جهادها ضد الاستعمار على جوانب الحكم فيه بينما أهملت النظر الثقافي إليه كإرسالية تبشيرية. والاستعمار، ككل المبشرين، لا يرى خلاصاً للمرء إلا بخلعه دينه القديم والتحول إلي الدين الحق الذي جاء به. و تُحلل هذه المدرسة النص الخلاسي كمحصلة للاستعمار كحادث مهين لم يكن ليحدث لولا امتلاكه أسباب الشوكة والإدعاء. غير أن سخفه لم يمنع مَن استعمرهم من اهتبال سوانحه ليقدموا أفضل ما عندهم في الشروط المجحفة المعروفة.

وقد سبق لي أن درستُ جهاز القضائية السودانية كنص خلاسي. ولم يحجبني إعجاب الكثيرين بها، وبخاصة القانونيين الغردونيين، من رد متاعبنا المستمرة في إنفاذ العدل ببلدنا، وتقلبنا من تقليد قانوني إلى أخر، إلي مساهمة الإنجليز المخربة. فقد بنوا، بغير حاجة ملجئة، قضائية ثنائية مدنية وشرعية لا سند لهم في ذلك سوى سوء ظنهم المغرض يالإسلام وشريعته. ولم يكن بوسعهم تجاوز ضغينتهم على الاسلام بحكم أنهم إرسالية تبشيرية لا تقوم لها قائمة بغير أن تبخس الناس ثقافتهم. أعرف عن حسب الرسول أنه مختص نجيض في علم الإدارة. فأرجو أن يجد في الإطار الإداري الذي وطنت فيه ميلاد بخت الرضا سبباً لدراستها كواقعة أدبة إدارية. . .لا تربوية كما فعل طوال رده على كلمتي عن بخت الرضا.

الحبوبة: غروب شمس مؤسسة ثقافية

تأملت معهد بخت الرضا منذ آخر السبعينات كمختص في علم الثقافة لا في علم التعليم. وربما استرجع الآن تلك اللحظة التي بدأ لي فيها صواب أن نجرب نقد رضا بعد إسراف كثير في تمجيدها. وهي اللحظة التي يسميها الفرنجة "لحظة يوريكا". و"يوريكا" باللاتينية هي "وجدتها". وهي الكلمة التي قالها عالم الفرنجة نيوتن حين اكتشف قانون الجاذبية. ولحظة يوريكا بخت الرضا عندي هي يوم قرأتُ في آخر السبعينات مقالاً بمجلة أمريكية يدعو أهل التربية ببلدهم للاستعانة بالحبوبات ليحكين للتلاميذ الأحاجي في حصص مخصصة لذلك في المدارس. وتصادف أنني قرأت خلال تلك الأيام كتاب مؤسس بخت الرضا (١٩٣٤) قريفث "تجربة في التعليم" الذي تحدث عن فلسفته في إنشاء هذا المعهد. وهي فلسفة جحدت المحيط السوداني أي حظ من الثقافة. فليس في المحيط السوداني، حسب هذه الفلسفة، حتى فن الحكي الذي لم يخل منه مجتمع حتى قال أحد العلماء إن أفضل تعريف للإنسان أنه حيوان حكّاي. ولما جحدنا قريفث حتى فن الحكي، الذي لا يكون الإنسان إنساناً إلا به، جرى تصميم المدرسة الأولية لتكون المؤسسة الغنية لمجتمع نظيف الجيب من الثقافة. وهي حالة استعنت على وصفها في كلمة مضت بحديثه صلى الله عليه وسلم عن خضراء الدِّمَن، أي المرأة الحسناء في المنبت السوء.

لا ادري إن كان إدخال الحبوبة في التعليم (والفصل تحديداً) مما خطر للبروفسير عبد الله الطيب حين دعا إلى بخت رضا مضادة تعلم اللغة العربية لتلاميذ الأولية عن طريق الأحاجي. ولكني لا أعتقد أنه كان سيستنكر مثل هذا الاستدعاء أو يستكثره. فمن قرأ للبروفسير "الأحاجي السودانية"، الكتاب الأميز توزيعاً في السودان، سيعرف لماذا قد لا يعترض البروفسير على ذلك. فعبد الله الطيب هو "الحجّاي" الأول بلا منازع. وواضح أنه استمع جيداً لحبوباته وتشرّب فنونهن في الأداء حتى وهو ينقل هذه النصوص من الشفاهة إلى الكتابة. وقد فصلت ذلك في كتابي "الثقافة والديمقراطية" للمستزيد. وعلاوة على نفع كتاب أحاجي البروفسير العام فإنني أتصوره بمثابة عرفان لمثقف القرية العتيد: الحبوبة. وقد واصل البروفسير ترويج فن الأحاجي، التي بدأها في كتيبات صدرت عن مكتب النشر

التربوي في الخمسينات، فنشر طائفة منها على صفحة الأستاذ علي المك الثقافية بجريدة الأيام في ١٩٥٨. وجرب في كتابة حجوة "تني أم المدقاق" بالجريدة أن يستعيد بالقلم ما وسعه أداءها الفعلي بواسطة الحبوبة بفاتحتها وما يتقدمها من ألغاز حتى خاتمتها التي لم يتورع فيها من قول "انحترت وانبترت" بغير أن يستكملها. وهذا خضوع كثير لفن الحكي وتبتل في محرابه من هذا العالم الفصيح. وصفوة الأمر: والله البروفسير حجاي حجا. . . على الورق.

وقد ساقني خبر الحبوبة الأمريكية إلى تأمل حال أمي المرحومة الحاجة جمال أحمد حمد. وهي حجاية حجا. ولا زلت اذكر لها الحجوة الطريفة " يا أم جور كتلتي وأديتهو الخور". فقد انقطع حكي الوالدة منذ عهدي بها. فلم أر لها حلقة تنعقد بين أحفادها العديدين. ولا يبدو أنها أخذت هذا الأمر على علاته كما أخذناه. فالحكي يقتص منك إن لم تمارسه وتكون الأحاجي بذلك أفراخاً تنقر في واعية المؤدي تريد أن تخرج إلى العالم فتُمتع وتربي وتهذب. وتبيّنت بالملاحظة شقاءها بهذه الأفراخ الذي تجسد في بغضاء شديدة للتلفزيون. فهي لا تكف تطلب من الحفيدات المختطفات عنها بهذا الجهاز السحري: "يا بنات وطنْ صوت القشريون دا!" وكانت تشرق حين تستعيدهم للحظات قليلة تحكي لهم ما اتفق.

وتحالفت تلك المعاني في نفسي لتُملِي عليَّ مقالاً عنوانه "الحبوبة: غروب شمس مؤسسة ثقافية" تفضل الدكتور محمد ابراهيم الشوش، الذي ما كف عن الحفاوة بما نكتب، بنشره على صفحات مجلة الدوحة في ١٩٨٠. ثم أعدت نشره بكتابي "عبير الأمكنة" (١٩٨٨). واجدد نشره هنا طالما كنا بصدد بخت الرضا الجاحدة لثقافة السودانيين.

لا مناص من التقدم. وهذه حقيقة مزعجة نوعاً ما. وربما كان افتتان الناس بالطيب صالح راجعاً إلى تجويده بناء شخوصه الروائية إجادة تجعلهم بمثابة التحفظات المتماسكة على مطلق التقدم.

كنا نحضر حفل ختان. وتشعب الحديث لينتهي عند مبلغ استهانة اللصوص بالأمن والناس بدليل اعتداء أحدهم على امرأة عند أول الحي أول المساء. وتساءل أحدهم: "كان يمكن أن تصرخ". فقال الطهار القديم: "من يغيث؟ أهل المروءة في شغل بالمسلسلات. صيحة في واد."

استرجعت بكلمات الطهار بعض ما ترتب على صدور كتب ومسلسل "الجذور" للأمريكي أليكس هيلي. فقد قيل وقتئذ إن "الجذور" تذكرة بمركز الحبوبة في حياتنا بعامة وحياة النشء خاصة. فقد بدأ هيلي مبحثه الفذ عن منشأ أسرته بنذر أخبار سمعها من حبوبته. ولم يكد هيلي يبدأ البحث حتى أخرجت مستودعات

التاريخ ذخائرها: جداول حركة السفن، ما نفسيتات الشحن، مكتبة الكونغرس، لتقود كونتا كنتي (وهو جد هيلي الذي جاء مُسترَقاً إلى أمريكا) على قدمي حفيده المؤلف إلى مرابع الصبا وحمى الأسلاف في أفريقيا وقد تأخر عن الموعد المضروب قرابة عامين. وكأن تلك الذخائر كانت بانتظار دفع هيلي وشغفه لتنتظم أوراقها المكدسة في معني قديم تشتاقه.

ربما لم تأت "جذور" هيلي بحديد في قصة الصبا الأفريقي الرائق بين الطقوس الحفيلة. ومؤكد أنه لم يضف جديداً إلى قصة شقاء الزنوج الأمريكيين. مأثرة هيلي أنه الحم شجرة عائلته بين قارتين وعبر قرنين فأفرج بضربة واحدة عن احتمالات التاريخ المثيرة.

ولا يخفى على الناظر تضعضع مركز الحبوبة في الأسرة السودانية المدينية وبين طبقاتها المتوسطة والمتعلمة. فقد تضافرت الدادات والتلفزيون على اقتسام مساهمتها المخصوصة ليبقى لها دور التسخط والإزعاج. وهذا الدور هو بعض مادة الكوميديين عندنا. فالحبوبة في فكاهات جعفر عز الدين وفي ثياب "بت قضيم" للفاضل سعيد مّخرفة خَرفاً هو مزيج من الشره والبله والتطفل والإدعاء.

والتخلص بالهزء من الحبوبة قرين بالتخلص بالفعل. فالأصل في خطتنا الإسكانية وتوزيع منازل الحكومة والمؤسسات هو الأسرة الحديثة (في مقابل الأسرة التقليدية) وهي المكونة من الأب والأم وذريتهما. فهي تُعطي خمس درجات لكل من الأم والطفل الأول بينما تعطي الكفالات، وهي خانة الحبوبة، درجة واحدة. وليس ينظر في توزيع منازل الحكومة والمؤسسات في الذي أعرف من جامعة الخرطوم إلى كفالة الأم أو غيرها. خططنا الإسكانية، بما في ذلك التصور المعماري للمنزل، تنظر إلى العائلة الأوروبية بوصفها الكلمة النهائية في الذي ستكون عليه العائلة بإطلاق. والمعلوم أن العائلة الأوربية بنت ظروف وملابسات لا يصح علمياً تعميمها علاوة على أن كارثتها الآن موضوع مباحث مختلفة تحاول استدراك العناصر التي فقدتها في شرط الرأسمالية القح. والحال كهذا فنحن في الأمم الأخرى بحاجة إلى قدر صحيح من ريبة العباسي الشاعر في حضارة الغرب التي "لم تك يوماً والحوادث جمة حِمىً لضعيف". والحبوبات قبيل من الضعفاء.

راج اعتقاد بأن أحاجي الحبوبات خرافات. وترافق هذا الاعتقاد مع استعادتنا لإرادتنا الوطنية بالاستقلال الذي جعل لما نعتقده خطراً. وقال القائل إن سعالي الأحاجي وغولها وسحاحيرها مما ينشئ النشء على الخوف ويطبعهم عليه. واصبح الانقطاع عن أحاجي الحبوبات دليلاً على التربية الحديثة. وأصابت

الأطفال مسغبة روحية. فمكتبة الطفل العربي والسوداني معاً لم تزهر على ركامها المتراكم كلمة مسلية منذ كامل كيلاني ودار النشر التربوي في طورها الأول. وأصبح الطفل السوداني والعربي غرضاً يرمى وصيداً لصائد. فهو يقرأ ويتفرج على أشياء أيسر ما يقال في رداءتها إنها تخطتنا كلنا، آباء ومربين ووطناً، وخاطبت طفلنا مباشرة. وخرج على أطفالنا جبابرة مثل إستيف أوستن وعالم غرائبه الذي يقعد به التقعر دون بلوغ غرائب الأحاجي الذي تكون الرغبة فيه صنواً للفعل. كما خرجت على أطفالنا حيوانات مثل كنق كونق التي شيدتها خبرة طويلة في الرعب المحض.
لقد أردنا بإطراحنا الأحاجي التحضر. وأملنا أن يزين التحضر عقل أطفالنا باستنارته ويطبعهم بعقلانيته. ولم يكن العالم المتحضر عند حسن الظن كما رأينا. ووجدنا بضاعتنا (موضوعات أحاجينا المخيفة) تُرَد إلينا وقد أعادت إنتاجها مؤسسات غربية إنتاجاً لا يخلو من الميل والزيغ. وصح القول إننا باستعجالنا التحضر بلا هدي أسقطنا الفن العالمي المؤكد الذي بيدنا: الأحاجي. فأحاجي العالم قاطبة تقوم في تجريدها على موضوعات مرصودة مثل "الذئب والصغار" و"الحصان المعاون" و"قاتل الأخطبوط" و"الأكول" وغيرها. وهي موضوعات تتفرع بها القوميات والجماعات وتطلق فيها خصوصية خيالها وتبتكر فيها ما شاءت. وقد أذاع الدكتور سيد حامد حريز في كتابه "قصص الجعليين الشعبي" فرضية حسنة التأسيس في علم الفولكلور مؤداها أن الحكاية الشعبية عند الجعليين إبداع بلغ الغاية في التوفيق بين عناصر قصصية عربية وإسلامية وعناصر قصصية أفريقية. وهذه إبداعية منضبطة في استجابتها للمعطيات من حولها وحرفيتها متقنة. وهي مما يعتد به في أهلية أي جماعة للتطور السديد. وهكذا فتخلينا عن الأحاجي شاهد اخر على بؤس مسعانا الراهن للحاق العالم ونقديس "سنة التطور" وخلع ذاتنا على عتباتها المقدسة.
ليس يخفى التشرد الروحي المخيم على شبابنا. أنظر إليهم عند دسكو أركان العمارات الركينة يظهرون طرباً كالإدمان. يستحثهم الطلب والاستهلاك لبضاعة الأشرطة لا التذوق المدروس. يعلنون على قمصانهم عن أشياء مذهلة مثل أساطيل البحار الأمريكية المنوط بها تأديب كل منا في الوقت المناسب.
إن حاجتنا إلى عجائز المنعطفات في الأحاجي ماسة. أعطت هذه العجوز للشاب شوكة سدر وشوكة طلح ودرابة وطينة وقالت له إذا انتزعتَ فتاتك من الغول ولاحقك فارم بهذه الأشياء واحدة إثر الأخرى. ففعل. رمى شوكة السدر فانشقت الأرض عن غابة سدر. رمى شوكة الطلح فانشقت الأرض عن غابة طلح.

واستحالت الدراية غابة جدران. واستحالت الطينة بحراً. وما يكاد الغول يجتاز عقبة حتى تنهض بوجهه عقبة. فإذا بلغ البحر شربه ليجففه فانقد. وهذا من أمن العناصر. وهو تحديداً ما نحتاجه لدرء الأشباح التي تمسك بخناقنا.

قال محمد المهدي المجذوب إن جوهر شعره انعقد من مرويات جدتيه الحافظة المعلمة السيدة الحاجة مريم والسيدة البرة أم الأضياف بنت وهب. والحال فأنت لن تجد مبحثاً عميقاً في الروح في مقام شعر المجذوب خلوا من بصمة الحبوبة: خازنة الغور ومستودع شفرة المعارف الأساسية. وامتنان المجذوب لجدتيه مما يرد الاعتبار للحبوبة في زمن كاد يلغيها بمزاعم شتى.

■بخت الرضا المضادة: محجوب شريف والعجوزوالفصل

وددت لو عطلنا إعجابنا المشروع بمحجوب شريف الشاعر الثوري إلى حين لنعجبَ بمحجوب شريف التربوي. ومحجوب من غرس بخت الرضا. فقد تدرب كمدرس أولية على سُنّة بخت الرضا ومنهجها. ودرّس بالمدارس الأولية زمناً وما زال محجوب في قرارة نفسه مدرساً قبل أن يكون شاعراً . ومن المؤكد أنه أحب من بخت الرضا أشياء وكره منها أشياء كثيرة من غير تصريح أو تنظير. وقد بدا لي دائماً في تجاربه التربوية في مدرسة الأحفاد في التسعينات وفي مؤسسته "نفاج" ، التي يديرها بالتعاون مع مركز عبد الكريم ميرغني، أنه "بخت الرضا المضادة". وتمثّل تضاده لبخت الرضا في مسألتين. فهو أولاً شديد الاقتناع بأن محيط المدرسة السودانية عامر بالثقافة لا كنصوص فحسب بل كممارسة في الأريحية والفضل والتراحم ورباطة الجأش وغيرها. وهو خلافاً لبخت الرضا، التي بخست قدر السودانيين من الثقافة، يريد لتلاميذه أن يتصلوا بتلك الثقافة نصاً

وممارسة، لكي ينشؤوا على خلق عظيم. وقد سبق له أن قال ذلك شعراً: "والشارع مدرسة شعبية".
ومن الجهة الأخرى استقدم محجوب إلى دائرة التعليم معلمين ومادة غير ما اتفق لبخت الرضا. فقد ألف بين الصغار والحبوبة الراوية الحجّاية بصورة لم يُسبق إليها. كما وضع نصوصاً لم ينظر فيها إلى محفوظات بخت الرضا المستكرَهة كما رأينا عبد الله الطيب يصفها. وطلب في كل ذلك أن يستثير خيال الأطفال حول وقائع محيطهم الاجتماعي حتى تنطبع فيهم انطباعاً حسناً وتبقى فيهم ينبوعاً للرجاحة في طلب التغيير والخير لبلدهم.
تعيّن محجوب معلماً بمدرسة الأساس بالأحفاد في التسعينات الأولى برغبة من مجلس الآباء بعد فصله للصالح العام بعد قيام دولة الإنقاذ. وقد وفّرت له المدرسة مناخاً طليقاً يجرب فيه "مدرسته المفتوحة على الشارع" أو "مسرح الشارع" كما وصفها ضاحكاً. وسنرى هنا صورة لتجربة تربوية ربما تطرّف فيها محجوب سباحة ضد تيار بخت الرضا. فلم تكن حصص محجوب تنعقد في فصل بحيطان معلومة. فقد كسر محجوب الحائط الرابع، بلغة المسرح، وراح يأخذ تلاميذه إلى الطرقات ليتلقوا العلم مما أفاء به الله على أهلهم العاديين. وهذا علم ازدرته بخت الرضا وساء ظنها فيه (أو أساءت تقديره بالأحرى) حين وصفت مجتمع المدرسة بالخلو من الثقافة. وقد ساقتها هذه الخلاصة المجازفة عن ثقافة السودانيين إلى الاستثمار في المدرسة لجعلها المؤسسة الغنية لمجتمع "معلم الله" من المعرفة كما رأينا. فمتي سار محجوب مع تلاميذه في الشارع كان يعلمهم قاعدة المفرد والمثنى والجمع بجعلهم يعدون شبابيك منزل ما: شباك شباكان شبابيك. أو ربما أطلعهم على مترادفات شباك مثل "نافذة: نافذتان ونوافذ". وكان لمحجوب مطلباً أبعد من مجرد قواعد النحو. فهو كان يريد لهم أن يأمنوا للشارع: لسابلته ولخلطته وضوضائه ولغته، أي لوطنهم. فحدثني عن كيف اعترض مسارهم يوماً كلب نابح ارتعدت فرائص التلاميذ منه. ولكن سرعان ما خرجت صاحبة الكلب، وكانت حباها الله بسطة في الجسم، وقالت لهم ألا يخافوه فهو كلب هادئ لا يعضّ. ورد عليها تلميذ أنه ربما لم يعضها لأنها سمينة. فواصلت تطمئن التلاميذ على وداعة الكلب. وقال محجوب إنه اعتبر هذه الواقعة درساً في طمأنينة التلاميذ لحقائق شارعهم وأهلهم. وما أبلغه من درس!
وحدثني محجوب عن لقاء آخر لفصله بامرأة مسنّة. ولما طلبوا الحديث إليها أنزلت قفتها من على رأسها وجلست على مصطبة أحد المنازل. وكان محجوب ينتهز حديث المرأة لتلاميذه لتوسيع مدركهم اللغوي وبيان قواعد العربية لهم. فهو

يتسقط ألف المد وواوه وغيرها من حوار الفصل والعجوز ويشرح نحوها. ولابد أن ذلك كان يوماً سعيداً للعجوز أنِست إلى أحفادٍ لم تتصور أن تلقاهم أو أن يهتموا بها. وبينما هم جلوس جاء صاحب المنزل يحمل عصيراً في حفاظة سقى العجوز والفصل. وقال لي محجوب إن الذي سيبقى مع هؤلاء التلاميذ ما عاشوا هو أريحية العجوز السعيدة بهم وبأسئلتهم وأريحية هذا المضيف الذي سقاهم شراباً طهورا طرباً بلقاء الأجيال على مصطبته.

والوجه الآخر لتضاد محجوب مع بخت الرضا أنه أثرى طاقم التدريس بجمع التلاميذ بالحبوبة كمثقفة ومدرّسة. وقد تناغم محجوب، درى أو لم يدر، في هذا الجرأة مع دعوة عبد الله الطيب لبدء تعليم العربية بالحكايات الشعبية كما رأينا. وقد توافر لمحجوب أن يدعو الحبوبة لتدلي بدلوها التربوي في تجربته "نفاج". وهي ورشة لصناعة الخيال المحض بالحارة ٢١ بالثورة أم درمان. ومن عناصر خطة محجوب لإطلاق شراع خيال الأطفال المحرومين أنه يجمع "الهكر" من البيوت ويبذله لهؤلاء لأطفال في ورشة نفاج ليجعلوه خلقاً جديدا ويعرضونه للبيع. وقد اقتنى محجوب البص أصلاً كمكتبة متحركة تطوف بالأحياء المزقولة والمطرودة ليبلغ الكتاب أطفالها. ومحجوب يحتفظ لمدرسة بخت الرضا التقليدية بالجميل لجعلها المكتبة مرفقاً مركزياً في التعليم. والمعروف أنه قام بمشروع ناجح لاستعادة المكتبة المدرسية خلال عمله بقسم المناشط التربوية بمدينة أم درمان بعد انتفاضة أبريل ١٩٨٥. وهو مشروع يفخر به ويذكر بالعرفان الزمالة العظيمة التي اكتنفته بقسم المناشط حتى أثمر.

ومن الجهة الأخرى فقد استبدل محجوب محفوظات رضا المستكرهة كما وصفها عبد الله الطيب من مثل" أشرقت شمس الضحى" ببعض تأليفه من الشعر السائغ الذي اشتهر به. فقد كتب لتلاميذ مدرسة الأحفاد أساس نشيدا صار علماً للمدرسة:

البنت والولد
لرفعة البلد
كلاهما غداً يزيدنا عدد
كلاهما غداً لمجده مدد

أو في قول أم عن ولدها "أحمد"::

أحمد جاء
نكتب اسمو نتهجاه
ما قصر معاي في البيت
ولا خلانا نترجاه

فالح ربنا يخليه
ومن شر الكضب ينجاه
أبويا أنا جدكم رباه
زمانك، نَوّمو وحجّاه

وقد صدر بعض هذا الشعر في كاسيت معروض للبيع.

إن محجوباً معدن تربوي لا ينضب. وقد غطت ثوريته الشعرية على أكثر ثوريات محجوب خطرًا؛ وهي تلك التي ترخي لخيال التلاميذ أعنة الطلاقة. فقد بدأ من بخت الرضا ورأى انغلاق تجربتها عن مرجعية الشارع السوداني. ولتنميه هذا الخيال كسر محجوب الفصل المدرسي طق. وهذه ثورة الشاعر على "اعتقال الخيال" التحفظي. فالشاعر وحده الذي يرى الخيال كاستثمار مضمون الريع بينما تأتمر عليه كل القوى الأخرى مثل الحكومة والأحزاب والعائلة والمدرسة. فكلها تأتمر عليه تريد تدجينه أو تلويثه لصالحها.

■ الأحفاد: وفي عُنُقِ الحسْناءِ يُستحْسَنُ العِقدُ

رأينا في المرة الماضية كيف كسر الشاعر المعلم محجوب شريف "طق" حائط فصل المدرسة الذي يحول بينها ومعرفة محيطها. وقد هداه إلى ذلك مبدأه الأصلي أن بالسودان ثقافة ولو كره الكافرون. ورأيناه يهجر الفصل والسبورة ووسائل بخت الرضا السمعية والبصرية ويأخذ تلاميذه إلى الشارع يتلقَّون علمهم كفاحاً من أفواه الناس. ولا يعني هذا أن محجوباً قد قرر أن تعليم الفصول قد خرّف وجاء تعليم الشوارع لا غير. فلم يرد محجوب من "مدرسة الشارع" سوى رد الاعتبار لعلم السودانيين الذي جهلته بخت الرضا وحجبت عن المدرسة الأولية بالنتيجة كنزاً من المعارف لا يفنى. لم يرغب محجوب في غير أن تكون المدرسة الأولية حسناء حقاً في منبت للحسن.

وأكثر ما انتبهت إليه في حديث محجوب إليَّ عن مشروعه أن مدرسة الأساس بالأحفاد هي التي وفرت له بيئة التدريس على الطبيعة. فلم تقيده بفصل أو حتى جدول حصص. فقد أرادت المدرسة أن تتحلل من بعض ذلك كله لتوفر لتلاميذها

تعليماً مختلفاً مستثمرة موهبة محجوب كمعلم حسن التدريب على سكة بخت الرضا وشاعر فحل.

وهذه طلاقة معروفة للأحفاد. فهي مدرسة أهلية (أو خاصة بلغة زمننا) لم يخيم عليها نموذج بخت الرضا في تبخيس ثقافة السودانيين. فقد تأسست على فلسفة الشيخ بابكر بدري (١٨٨١-١٩٥٤) في الأخذ من الحداثة بمصفاة موروثنا. وهو أخذ لا يريد منه أن يرواغ الحداثة ويشاكسها باسم التراث بل يريد لها أن تتنزل بذكاء عند عنواننا العربي الإسلامي الثقافي. فالشيخ قد رأى شوكة الحداثة مرأى العين في معارك المهدية. فقد تساقطت عليه جُلل الإنجليز الفولاذية القاتلة في غزوات المهدية بجبهة الشمال وفي موقعة كرري. وأخذته الحداثة بغتةً وهو قابض ب "سيف العشر". وليس مَن رأى كمَن سمع. وهو من الجهة الأخرى خريج المسيد السوداني وخلوته وتلقى فيه تعليماً جعل منه "طالباناً" لبى نداء المهدي وأبلى في الجهاد من أجل الإسلام وظل على عقيدة الأنصار لم يبدّل تبديلا. ولم يتزحزح في تجربته التعليمية كموظف بمصلحة المعارف خلال سني الإنجليز، أو كمؤسس لمدارس الأحفاد، عن فكرته التربوية المركزية في توطين الحداثة في ثقافة أهله العرب المسلمين. وقال حبيبنا وقريبنا المرحوم عبد الله الشيخ البشير، الذي درّس بالأحفاد وأدرك الشيخ بابكر في آخر أيامه في الدنيا، إن الجمع الذكي بين التقليدين يحتاج إلى "إيمان" لا شعارات وعصبيات. وتركز هذا الجمع بين الحسنيين في منهج الشيخ بابكر بدري "الإدخال الخلوة في المدرسة" كما في عبارة رشيقة للبشير. وهذا المنهج إلحاد كبير في طريقة بخت الرضا التي صممت مدرستها خضراء الدمن: حسناء في منبت قبيح جاهل.

وسنتجاوز مشروع الشيخ لتطوير الخلاوي كمفتش لها بمصلحة المعارف إلى كيف تجسد إدخال الخلوة في المدرسة في الأحفاد الثانوية بأم درمان. فقد الحق الشيخ بها خلوة قرآنية كان عليها الحافظ الورع عبد الله الأنصاري. فكان يأتي إلى المدرسة مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً ويعقد حلقة للطلاب لحفظ القرآن. وكان للحلقة جمعيتها المدرسية كسائر الجمعيات. وكان الحفظة من طلاب الحلقة يفتتحون اجتماع المدرسة الصباحي بآي الذكر الحكيم. وقد استلهم السيد يوسف بدري، عميد الأحفاد من بعد والده، عقيدة أبيه التربوية فأعد رسالته الجامعية عن تاريخ تعليم الخلاوي ومشائخها. ووجد البشير بيئة الأحفاد سائغة ليكتب قصيدته الطويلة "المسيد". وتآزر المرحومان على مسرَحَتها في يوم الذكرى وهو يوم الآباء المكرس لعرفان فضل الشيخ على المدرسة. وجاؤوا للمسرحية بألواح القرآن من خلوة السيد عبد الرحمن المهدي.

لم يُدخل الشيخ الخلوة في المدرسة فحسب بل حمل إلى المدرسة صفوة علم المجتمع الذي ظنه قريفث عاطلاً في العلم. فقد كان الشيخ يدرّس طلاب الفصل النهائي كتاب "طبقات ود ضيف الله." والكتاب على غرار تأليف الطبقات الإسلامي المعروف وفيه سير الخاصة العلمية والصوفية في صدر دولة الفونج (١٥٠٤-١٨٢١). وقد أحسن تحقيقه لاحقاً أستاذنا البروفسير يوسف فضل حسن. وقد تعلمنا مبادئ حرفة التحقيق على يدي يوسف خلال انشغالنا معه بأمر الطبقات. وقال البشير إنه كان يرى الشيخ يخرج من الفصل الرابع متأبطاً كتاباً أصفر مثل كتب الفقه. وقال إنه لم يرد أن يزعج الشيخ بالسؤال عن كنه الكتاب، وبدلاً عن ذلك سأل الطلاب عنه. وقالوا له إنه كتاب عجيب اسمه طبقات ود ضيف الله ملئ بخوارق لا ندري أنصدقها أم نكذبها. ولم يهدأ للبشير بال حتى حصل على نسخة منه. وشغف به وقرأه أربع مرات في شهره الأول. وقد جاءت قصيدة المسيد ثمرة لإدمانه قراءة الكتاب وإجالة النظر فيه.

وقد وصلني خبر الكتاب ومدده الثقافي حين التقيتُ البشير في بلدتنا "القلعة" بالولاية الشمالية في صيف ١٩٦١. ورأيت الكتاب بيد البشير فسألته وعرفني وشوقني حديثه عنه إلى اقتنائه. ولدى عودتي إلى مدينتي عطبرة وجدت نسخة وحيدة منه بمكتبة السكة الحديد فاستعرتها ولم أرجعها والتهمتها قراءة. وحمل البشير حُب الكتاب إلي مدرسة خور طقت الثانوية حين درّس بها في الستينات. فقدم محاضرة عنه راقت للناس حتى سمّوا إحدى الداخليات "ود ضيف الله" براً بهذا الرجل العالم المحقق. فانظر بركة هذا الكتاب الذي جهله قريفث فعاداه وأقام بينه وبين مدرسة بخت الرضا سداً مستكرَهاً.

وبلغت الأحفاد في طلاقتها شأواً بعيداً. فقد سألتْ البشير ومدرساً فلسطينياً اسمه أبو ابراهيم خوري في ١٩٥٧ أن يُعدا مقرراً للأدب الشعبي يدرّس لطلاب الصف الأول والثاني. وهذا طلبٌ بلغ الغاية في عكس حركة المدرسة عن مألوف بخت الرضا. فالمدرسة الغنية بحسب تصميم بخت الرضا هي التي تفيض بنورها على عتمة المجتمع المزعزمة. وها نحن نجد الأحفاد تستنير بالمجتمع من حولها في تربية طلابها. وكان خوري من خريجي كلية القدس بالشام وجامعاً ذوّاقة للأدب الشعبي العربي بالسودان. وكان يحاضر فيه وله رأي حسن في جماله وفصاحته. وقد طاف البشير وخوري برواة الشعر والحكايات بأم درمان وجمعوا قدراً صالحاً منها. ورتّبوه في شكل منهج أخّاذ وطبعوه على الرونيو (هل من نسخة منه محفوظة بإدارة الأحفاد لهذا المتيم بالتجربة؟) وقررت له المدرسة حصة في الأسبوع يجلس له الطلاب في امتحان برغم أن الشهادة فيه غير مجزية

عند وزارة التربية التي تعد الأدب الشعبي خرافات وحديث عوام. وأكثر ما ركز المنهج عليه هو تقريب لغة وخيال الشعر العربي والجاهلي خاصة للطلاب بواسطة مأثورات البادية العربية السودانية. فمثلاً يقابل المنهج بين قول طرفة بن العبد الجاهلي يصف الجمل ب "الظليم" (ذكر النعام) بقول الشاعر الشعبي "الهضليم". وهما نفس الحيوان مع اختلاف اللفظ. وقد حمل البشير هذه الخبرة في تدريس الشعر العربي من خلال الأدب الشعبي إلى مدرسة خورطقت. فدرّس المعلقة في مقرر الشهادة السودانية على ضوء الشعر العربي. وقد رضي البشير عن خطته بعاقبة. فقد سمع، وقد ذهب بصره ولزم الفراش وجهاز الراديو، اللواء إبراهيم إيدام، عضو مجلس إنقلاب الإنقاذ الوطني، يحكي يوماً ذكرياته لإذاعة أم درمان ويخص البشير بالفضل لأنه قرب لهم المعلقات بشواهد الشعر الشعبي.
تقف الأحفاد شاهداً على فساد فكرة قريفث في بناء المدرسة الأولية كخضراء دمن. فقد جاءت الأحفاد ببعض علم السودانيين بالشباك بعد أن رماه قريفث، مهندس التربية السودانية، بالباب. وقد رأينا بركة هذا العلم السوداني المزجور تخص وتعم متى وجد للمدرسة القريفثية سبيلا. "وفي عُنُق الحسناء يُستَحسَن العِقد" كما قال المتنبئ.

التيجاني الماحي: يلحقنا

لا جدال أن التعليم في ظل الإنجليز لم يرد تزويد خريجيه بعلم وطرق تحرّي الحقيقة. وهذا مطلب التعليم في بلاد الغرب منذ عهد نهضتها في القرن الثامن عشر، أو كما قالوا لنا. لم يطلب الإنجليز في مستعمراتهم من التعليم سوى تفريخ طاقم وطني ملم بحِرف ومعارف ليوظّفه في إدارة البلاد بثمن بخس. فلو جاء الإنجليز بمثل هذا الطاقم من انجلترا لتكلفوا مالاً كثيراً. ولذا أطلقوا على كلية غردون "التجهزي" أي الموضع الذي يعد الطلاب لوظيفة الحكومة بشكل رئيس. ولم يشمل هذا الامتياز خريج المعهد العلمي مثلاً. ولم أجد تصويراً لاقتصار التعليم على تهئية الخريج لوظيفة مجزية من قسَم أخينا محمد النعيم مهيّد الغليظ "أعدم ماهيتي" على تلك الأيام.

وصفوة القول كان التعليم جزءً من الإدارة لا الحضارة التي زعم الإنجليز أنها القصد من حكمهم الشعوب الأخرى الموصوفة بالهمجية. وكان من سابع المستحيلات بالطبع أن يدرّب الاستعمار أبناء الأهالي على طلب الحقيقة لأن هذا مبحث سيقودهم بطريق مختصرة إلى فساد فكرة الاستعمار نفسها. ولما لم يكن هم التعليم تثقيف النفس على التماس الحق خلا من البركة وأضحى مجرد حرفة يمتهنها المتعلم في جهاز إدارة ضرائبي بحت لا يربطه بأهل البلد رابط غير استثمار ما يتسنّى لهم من موارده.

ولهذا قال البروفسير عبد الله الطيب إن علمهم المستحصل من الإنجليز، وقاعدته المدرسة الأولية التي صممتها بخت الرضا، ليس بعلم لخلوّه من البركة. والبركة مصطلح في طلب الحق والخير والجمال. وستجد لانقطاع هذا العلم عن البركة شواهد دقيقة في أصوات أهل القرى التي تسللت إلى كتابهِ "من حقيبة لذكريات". فقد قال أحد القرويين للبروفسير في صِغَره "ما قرّبت يرتبوك" أي ألم تدن من التخرج لتنال مرتبة في الدولة. ثم صوت قروي آخر بليغ: " يا ولدي دحين قرايتكم دي فيها علم؟ قراية المدرسة ما فيها علم وقرعان (قرآن) عِلا دنيا ساكت". أو الذي قال له أن موظفي الحكومة "ناس لحوسات ساكت".

احتاج ردم الفجوة بين المدرسة الإدارية المستكرَهة وبين المجتمع إلى رجال ونساء من أهل العزم والتوكل. وكان شاغلهم إشاعة البركة في تعليم المدرسة

التجهيزي. فقد رأينا الشيخ بابكر بدري يجرب "إدخال الخلوة في المدرسة". ثم رأينا الأستاذ محجوب شريف يبهل المدرسة على المجتمع حيث "المدرسة فاتحة على الشارع.. والقلب مساكن شعبية". وسنرى في هذه الحلقة جهاد الدكتور التيجاني الماحي (١٩١١-١٩٧٠) ليقيم جسراً بين طب كلية غردون التجهيزي وبين طب الأولياء والصالحين والمداح والبصراء وشيخات الزار وضاربي الرمل. وهو جسر تزاوجت به خبرات الممارستين لصالح المريض. وهذا شغف بما يكتنف المريض من لغة وأخيلة وعقائد وقدوات تصحبه حتى يبلغ الطب الحديث. وليس في تعليم بخت الرضا وأهل الحداثة سوى الزراية بهذا الطاقم الذي يشيع الخرافة والدجل ويستولد العادات الضارة. ولذا لن تجد في قائمة من كنا نزورهم من شخصيات القرى والمدن خلال حصص الموضوعات في المدرسة الأولية شيخة زار أو ولياً باتعاً. وهذه جفوة مفتعلة في عبارة ذاعت عن نظام الفريق عبود.

كانت ضربة البداية للتيجاني في مشروعه الموصوف أعلاه أن يرفع عن الطبيب غشاوة المدرسة التي قيدت المعرفة بالذي يستحصله التلميذ منها ونفت كل حكمة أخرى. وعليه كان يريد للأطباء أن يتفلسفوا خروجاً من الحرفة إلى الثقافة. وكان التفلسف سنة في آباء الطب الإغريقي والإسلامي. والتفلسف إحاطة بالأمر من جوانبه جميعاً لبلوغ الحكمة وفصل الخطاب. وألزم التيجاني نفسه بدراسة الطب العربي وأصدر عام ١٩٥٩كتاباً حسناً فيه. وهذا من لزوم ما لا يلزم من خريج غردوني "رتّبوه" في قول القروي قريب عبد الله الطيب. ولكن الكتاب كان بمثابة رسالة في تاريخ الطب وفلسفته مما تمنح عليه الجامعات درجة "الدكتوراه." والدكتوراه في أصل بلادها مما يُمنح لبلوغ المرء غاية الإحاطة بمعرفة تخصصه أي فلسفتها. وقد طلب التيجاني بالكتاب أن يوطن علم الأفندية، وهو علم دنيا ووظيفة كما حدثنا الفلاح الفصيح، بعلم "فيه قرعان". وقد استولى هذا المطلب على نفس التيجاني وأدمن اقتناء الكتاب وغير الكتاب في تخصصه والعلوم كافة حتى بلغت حصيلة مكتبته ١٩ ألف مجلد.

وقد ساقته الفلسفة في تخصصه الطبي إلى تعريف الصحة بأنها هي المجتمع. ويريد التيجاني من هذا القول أن المرض ظاهرة حية لها كيان تاريخي ينبغي تتبعه واستقصاؤه وفقاً لمنهج تاريخي سليم. فالمريض، ومريض النفس خاصة، يجر معه إلى الطبيب تاريخاً أسرياً خاصاً وتاريخاً ثقافياً عاماً ولا علاج له مما به إن كان الطبيب مجرد حرفي من المفتونين بالعقاقير وحِيل الحداثة. بل أراد التيجاني للطبيب أن يكون "شاعراً مثالاً" لتنصقل أصابعه ويرهف حسه ويتقل

ضميره بعبء المسؤولية تجاه المريض. وترجم "خبز وحشيش وقمر" لنزار قباني للإنجليزية من فرط تعلقه ببلاغتها.

ولم يجد التيجاني مجتمعه قاعاً صفصفاً من الثقافة كما وصفه لنا قريفث وهو يصمم بخت الرضا لتكون المدرسة الأولية خضراء دمن، أي المؤسسة الحسناء في المنبت القاحل . فقد وجد التيجاني بلده غاصاً بثقافة أفتى قريفث بفقرها كفاحاً. فقريفث غير مختص بمثل هذا النظر ورأيه اعتباطي على أحسن الفروض إن لم يكن مستخفاً باستحقاق بلد من العلم لمجرد أن قومه الإنجليز قد وطؤوه. وقد صور الأستاذ بدر الدين سليمان، ابن أخت التيجاني، عيادة خاله في بحري فإذا هي مهرجان ثقافي تنادى إليه المثقفون التقليديون زرافات ووحدانا. قال بدر الدين: "كانت عيادته بالخرطوم بحري تعج بالمنشدين والمادحين وبإيقاعات الذكر والتهليل مما يضفي السكينة والاطمئنان ويشيع بشائر الغوث والنجاة في قلوب الواجفين ويوشج الطبيب بالمريض وبالأهل والزوار بوشائج الإلفة والثقة بما يحفز قوى النفس المكنونة لمقاومة المرض وتعجيل الشفاء".

وقد سعى التيجاني إلى هؤلاء المثقفين المنفيين عن بخت الرضا بقدميه يطلب حكمتهم. فقد شاهده السيد صالح بانقا صالح (ابن البان) يزور مسيد أم ضبان في الخمسينات. كما اختلف إلى شيخات الزار يسأل عن طبّهن ويدوّن أقوالهن ويكتب عن ممارستهن. وأذكر يوم شد انتباهي إليه أول مرة ورغبت في صحبته من بعد. فقد قال في مناقشة لورقة عن الزار في مؤتمر السودان في أفريقيا (١٩٦٨) إن الزار هو دراما نفسية. وهو رأي لم نسمعه عند عتاة المحدثين الذين عدوا الزار خزعبلات وعادة ضارة لا غير. وللتيجاني مخطوطات في علم الزار وعد الدكتور أحمد الصافي بنشرها.

وما استغرق التيجاني البحث حتى وجد أن للعلم التقليدي غير الغردوني أو القريفثي أصوله الثقافية العريقة. فقد قال في محاضرة له أمام أطباء النفس الأفارقة أن أصل علمهم هو السحر. فقد تطور علمهم عنه بنسق يمكن دراسته وبيانه. وقال لهم إن مجتمعاتنا لم تنقطع عن قواعدها في السحر بعد. وهذا يلقى عليهم تبعة أن يستصحبوا هذا الأصل لعلم الطب النفسي في ممارستهم وحكمتهم. وقرأ التيجاني كتاب "طبقات ود ضيف الله" ووجد وصفات العلاج فيها ترجع إلى جذور يونانية قائمة على نظرية الأخلاط الأربعة. ووجد الأشكال التي يرسمها "الفكيا" على الحجبات والتمائم والرقى راجعة إلى كتابة بابل المسمارية. وحتى عبارة "بحرو قائم" التي نصف بها من تتقمصه حالات عصبية مردها خرافة فرعونية قديمة ارتبطت بعبادة النيل. واكتسبت البلاغة العربية عند التيجاني

أهمية قصوى. فالأحلام، التي لا سبيل بدونها للتسلل على بواطن المريض العصبي، هي عنده كائن لغوي في المقام الأول. ولذا لم يستغرب أن يكون النابلسي مفسر الأحلام العربي البارع هو صاحب واحدة من أميز أماديح الرسول عليه افضل الصلاة والسلام.

وصار ردم البرزخ بين الممارس الغردوني للطب والبصراء سُنة في الطب النفسي عندنا حتى يومنا هذا. وأذكر أنني أشرفت على طالبة بجامعة الخرطوم كانت تبحث في علاقة عيادة الأمراض العصبية بعطبرة ومسيد الشيخ الجعلي بكدباس. وانتهزت أول زيارة لي لمدينة عطبرة وزرت طبيب مستشفي المدينة للأمراض النفسية لعرض موضوع طالبتي عليه. وقد وجدت أن العلاقة بين المؤسستين واصلة. بل رأيت خطابات حوّل بها المسيد مرضى نفسيين إلى المستشفي. ويفعل المستشفي نفس الشيء متى ما أحس بأن المسيد هي جهة الاختصاص. وهذا من فضل التيجاني علي هذا الطب ومن تبعه بإحسان مثل الدكتور بعشر. فقد وطنوه في تاريخ ثقافي وجنبوه التفرنج والتخبط في حزازات صرعى الغرب.

وقد رأينا كيف استغرق رجال في بأس بابكر بدري ومحجوب شريف والتيجاني عمراً من التأمل والتجريب وشجاعة الخاطر ليصلحوا من تعليم بخت الرضا ومشتقاته ويردوها عن ضلاله عن السودانيين. وقد حاول آخرون إصلاح بخت الرضا عن ضيق وحزازة وفساد نظر. فمنهم من احتج عليها لنقص في حصص مادة الدين مثلاً فزادها من غير أن ينفذ إلى لب مأزقنا مع بخت الرضا. ومنهم من دمرها تدميرا. وهذا إصلاح القشور أو الغضب المسمى ثورة كذباً وتلفيقاً. فالثورة على بخت الرضا في ما رأيناه من قامة الرجال المذكورين هي انشغال منقطع النظير بالبدائل وبث القدوة بنفس طيّب خلاق. وهذه هي البركة من العلم التي لم يجدها عبد الله الطيب في علم بخت الرضا. وقد أشرقت هذه المعاني عليّ وأنا اقرأ أن التيجاني زار جزيرة كروس اليونانية ليقف عند موضع ولادة بوقراط أبي الطب. ومنّا، على أيامنا العصيبة على مساكين الوطن والفقراء هذه، مَن نسي حتى قسمه يحمل مشرطه يريد رطله من لحم المرضى . . . بلا حكمة.

همشكوريب: حيّات البحر المتخاصمة

عبد الله علي إبراهيم

كنت أعجبتُ في كلمة لي بجريدة الأيام في ١٩٨٠ بعبارة "حيّات البحر المختصمات" التي وردت في رسالة رؤيية للشيخ علي بيتاي (١٩٣٠-١٩٧٨). ورأيت في العبارة مجازاً بليغاً. ولم يخطر لي يومها أن المجاز سينقلب إلى حقيقة وأن بعض هذه الحيات الشرسة ستطبق على همشكوريب موطن الشيخ وتنهش بعضها بعضاً فوق ثراها القرآني الطيب. فالمدينة كانت في ٢٠٠٧ معرضاً لحشود عسكرية متباغضة بحسب الجغرافيا التي رسمها الأستاذ عبد المنعم أبو إدريس في جريدة الصحافة لموطن الشيخ. فالمدينة محتلة (أو محررة) بقوات الحركة الشعبية. ويقف الجيش السوداني على بعد ١٥٠ متر منها منذ مطلع يناير الماضي يريد أن يستردها بحسب اتفاقية السلام الموقعة بين الحركة والحكومة. ومن جهة ثالثة تقف قوات الشرق التابعة لمؤتمر البجا على مسافة غير معروفة من ناحية الشرق على الحدود الإرترية تريد أخذ المدينة متى انسحبت منها الحركة الشعبية. حيات البحر المختصمات.

يعيدني اختصام حيات السودان المسلحة حول همشكوريب إلى ما تقدم من حديثي حول العلم والبركة. فقد استحسنت عبارة وصف فيها البروفسير عبد الله الطيب تعليمنا في المدارس بالخلو من البركة. فهو تعليم دنيا وغاية الذين أسسوه من الإنجليز ومن تبعهم بغير إحسان من الوطنيين منه هو الوظيفة. وترتب على ذلك أن نشأت مدراسنا على جفاء طبع منهجي لثقافة المجتمع من حولها. وتطرقت في أحاديثي لسيرة أحاد من الرجال من أمثال بابكر بدري والتيجاني الماحي ومحجوب شريف ممن غالبوا ذلك الطبع الجافي واستردوا المدرسة من ضلالها عن المجتمع وطعّموها بشيء من البركة. ولتجربة الشيخ بيتاي التعليمية، موضوع حديثنا اليوم، مساس كبير بما نحن فيه من أمر التعليم. فهو لم يغن المدرسة بعلم المجتمع كما فعل غيره. بل فعل ما هو أخطر لأنه كشف في التطبيق عن رحابة علم المجتمع، الذي جافته المدرسة، وبركته حين استصحبه في حركته لجعل الخلوة القرآنية أداة لتنمية وإصلاح حال أهله الهدندوة في بدء الخمسينات من القرن الماضي.

ولا أجد مثلاً على نقائض علم البركة وعلم الوظيفة أكثر مفعولاً من هذا التأجيج الحربي بداخل همشكوريب وعند بواباتها. فأصل همشكوريب في العلم البركة. فقد حظي بيتاي برؤية الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام الذي أمره بإرشاد القرآن. وبعد هذه الرؤية دخل في غيبوبةٍ سكراً بعظم التبعة الملقاة على عاتقه وحلاوتها. فأصبح النور الوهاج يحمله "مثل الريح أو القرعة التي يحملها السيل." ومتى اعتورته حالة السكر هذه أمِنت إليه الوحوش والطيور والغزلان والأرانب وصحبته في موكب يطأطي فيه رأسه حتى لا يصل السماء ويثقبها. وأخيراً قال الشيخ "رأيت الرسول مناماً فوق الجبل إلى جهة القبلة لمسجد همشكوريب وأنا في هذه الحالة وقال لي: " أمتي ..أمتي" وردها سبع مرات، امِنوا حاضرهم ونسوا آخرتهم. قل لهم توبوا إلى الله وأقرؤوا القرآن وامسكوا التهليل. وعيّن لي مكان المسجد بالوقوف فيه، وقال لي أعطيتك إرشاد القرآن." فولدت همشكوريب بأمر عالٍ بأن تدعو إلى الله والحق والخير بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذا أمر بالعلم لم يتلقه متعلم بالمدرسة بل ولربما نسبه للجهل والخرافة والدجل. فتعليم الشيخ لا ينتهي بالحصول على أوراق ثبوتية من بكالوريوس وغيره. فهو غير علم الوظيفة الذي تلاقت الحيات المختصمة عند المدينة تدنس مغزاه. ولم أجد مؤخراً من استبخس هذا العلم المدجج بالسلاح مثل الدكتور شريف حرير. فقد سألوه عن خلافه مع الحركات المسلحة في دارفور. فقال إنها ظنت "أنها وصلت إلى السلطة فتركت البرامج وانشغلت بالوظائف. وهناك مَن ظن أن القضية انتهت وبدأ يعد نفسه لمرحلة جديدة." فالكل يريد طبعته الخاصة من السودنة التي استأثرت بخيرها طبقة أبكار المتعلمين الشماليين. وبعضهم يريد أن يدافع عن استئثاره هذا. وهذه ثقافة الكتب السوداء التي "تجارط" في الوظائف تظن أن مجرد حصولها عليها هو كسب لأهلها ونعيم قادم لهم. وهذا وهم.

وللشيخ بيتاي رؤية طريفة عن مثل نزاعنا حول كراسي السلطان. فقد حزن يوماً لتوالي حبسه حتى بعد استقلال البلاد في ١٩٥٦ خوفاً من حركته الإصلاحية الدينية. فحلم ببئر عميقة تراصت فيها كراسي الحكم بعضها فوق بعض حتى تراجفت. فما جاء رئيس وجلس حتى انهار الكرسي بدويٍّ صحا به الشيخ من نومه من فرط شدته. وحدّث الضابط المشرف عليه برؤيته هذه فحذره من ترديدها على الناس لأنها قد تؤخذ عليه قانونا. واكتفى الشيخ بأن قال للضابط إن كرسيكم لن يثبت ولن يستقر. وصراع حيات بحرنا السوداني المختصمات حول السلطة تدافع مشروع وسنة بين الناس. ولكنه طال وأدمن الفشل. وأعجبني خطأ

مطبعي لجريدة الأيام (مايو ٩، ٢٠٠٥) أرادت القول "الصراع حول السلطة" فكتبتها "السطلة". والسطل سكر في مفارقة الحكمة لا سكر في طلبها وتغيير حياة الناس بها.والحكمة هي مطلب تعليم البركة أما تعليم بخت الرضا فطلبه الوظيفة. وما اندلعت حرب الوظيفة في همشكوريب حتى فارقها علم الوظائف وعلماؤه وبقيت نار القرآن بها متقدة. فقد توقفت بها المدارس منذ ١٤ سنة وخلا مستشفاها من الأطباء والكادر الطبي الآخر سوى ما تتطوع به المنظمات غير الحكومية.
أخذت على الحركات المسلحة دائماً أنها تريد الإنصاف بالقوة، لا بقوة كما ورد في القرآن: "خذ الكتاب بقوة". وقولنا "بقوة" نعني به الصبر على تربية الناس وشحذ عزائمهم لطلب الحق ورباطة الجأش. وهو طلب يسميه علماء السياسية ب"قوة الشعب". وقد رأينا مثلاً لقوة الشعب في بلدنا كثيراً. وهذا سبيل لم تسلكه أي من الحركات المسلحة وغامرت تطلب الحق بقوة السلاح. وظنت أنها تحتكر السلاح فإذا هو يتسرب منها لمن حمله في وجهها هي نفسها فيما بعد. وتحصد الحركة الشعبية في الجنوب الثمار المرة لعقيدتها في السلاح حين آل إليها الحكم الآن لتجد السلاح وراء كل مطلب موجه إليها كحكومة جنوبية.
ووددت لو توقفت حيات همشكوريب المتخاصمة عند سيرة الشيخ بيتاي في الثقة بنفسه وبأهله ليغيروا ما بأنفسهم وما بغيرهم بقوة لا بالقوة. فقد تشوش المسئولون من حركته الإصلاحية في أول بدئها. وقد تحدث إليه زعيم الهدندوة، وأظنه السيد ترك، ونصحه أن يفكك خلاويه ليرجع من فيها إلى حياتهم المعتادة في الحل والترحال. وقال له متى فعلت ذلك فهو سيقنع السلطات بسحب البلاغات المرفوعة ضده وسيعينه إماماً على مسجده. وأضاف بأن ذلك خير لأن حماس أنصارك شديد وأنت شاب حدث ما تزال وقد يقع منكم عنف ضار تأخذه الدولة عليك. فرد عليه بيتاي بقوله ألا يخاف منه وأن يأمن له "حتى من قطرة دم يراق لأني من شدة حنيني لا أطأ على النملة خوفاً من موتها وبدلاً من السلاح القديم (يعني سيوف الهدندوة) أتيت بالجديد: اللوح والإبريق والصلاة والسبحة والكتاب دلالة على الأمن والاستعداد للرحيل للدار الآخرة." ولم يقبل منه الزعيم ذلك ودعا له بالتوفيق وانصرف.
ووطئت حيات البحر المختصمات على نمل كثير، وبشرً بلا حصر. ولم يعد هناك لطول إدمانها العنف طلباً للجاه ما تقف عنده ورعة متجردة من السلاح. ولكل محارب حرمة إلا محاربي السودان. وقد صعد صيت قائد حرس الشواطئ الأمريكي بعد وقفة عند حرمة من الحرم. فقد رأى جنوده يصوبون سلاحهم إلى أعلى وهم يدخلون مدينة نيو اورلينز بعد كارثة كاترينا. وشاهده الناس على

التلفزيون زابداً بالغضب يطلب منهم أن يصوبوا سلاحهم إلى أسفل. فهم ليسوا في مواجهة عدو. فهم بين شعبهم، ولا يشهر جيش سلاحاً في وجه الشعب في دولة ديمقراطية.
أرجو أن تتفق حيات همشكوريب على أن للمكان حرمة. فقد كان شيخها من تلك الجماعة التي زكاها أفضل البشر قائلاً إنهم مفاتيح للخير مغاليق للشر. فهي "هارفرد" القرآن لو احتجتم إلى تشبيه مقبول لديكم. انصرفوا عنها اليوم قبل الغد إلى مكان دواس مناسب. دعوها فهي مأمورة. ونسأل الله أن ينغلق باب الشر القادم من جهة همشكوريب.

الشيخ علي بيتاي: المدرسة تغشّ القلوب

"*ورأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقال نبه أمتي قل لهم لا تقتل الغزلان ولا أولاده الصغار.*" من رسالة للشيخ علي بيتاي

همشكوريب الآن (٢٠٠٧) معرض لحشود عسكرية متباغضة بحسب الجغرافيا التي رسمها الأستاذ عبد المنعم أبو إدريس في جريدة الصحافة لموطن الشيخ. فالمدينة محتلة (أو محررة) بقوات الحركة الشعبية. ويقف الجيش السوداني على بعد ١٥٠ متراً منها منذ مطلع يناير الماضي يريد أن يستردها بحسب اتفاقية السلام الموقعة بين الحركة والحكومة. ومن جهة ثالثة تقف قوات الشرق التابعة لمؤتمر البجا على مسافة غير معروفة من ناحية الشرق على الحدود الإرترية تريد أخذ المدينة متى انسحبت منها الحركة الشعبية.

ويعيدني اختصام الطُّغم هذه حول همشكوريب إلى ما تقدم من حديثي حول العلم والبركة. فقد استحسنت ، كما تقدّم، عبارةً وصف فيها البروفسير عبد الله الطيب تعليمنا في المدارس بالخلو من البركة. فهو تعليم دنيا، وغاية الذين أسّسوه من الإنجليز ومَن تبعهم بغير إحسان من الوطنيين منه هو الوظيفة. وترتب على ذلك أن نشأت مدراسنا على جفاء طبع منهجي لثقافة المجتمع من حولها. ولتجربة الشيخ علي بيتاي (١٩٣٠-١٩٧٨)، مؤسس خلاوي همشكوريب، موضوع حديثنا اليوم، مساس كبير بما نحن فيه من أمر التعليم. فالشيخ صريح العبارة في أن مشروعه التربوي، الذي جعل به الخلوة القرآنية أداة لتنمية وإصلاح حال أهله الهدندوة في بدء الخمسينات من القرن الماضي، هو بخت رضا مضادة. فهو شديد البغض لخريج المدرسة. ولم يصدر في بغضه عن ما قد يتبادر إلى ذهن أهل الحداثة من رجعيته وأميته وجهله المزعومة. ما حمل الشيخ ليضاد بخت الرضا غصباً عنه أنه لقي صنوف الأذى من خريجي مدارس بخت الرضا في الدولة. فقد أصابهم الوساوس الخناس وهم يرون رجلاً من غمار الناس يصلح حال أهله بالخلوة التي هي عندهم ليست بشيء. وسعوا بألة الدولة لِلجْم الشيخ تحسباً من أن يؤدي به جهله وشراسة طلابه إلى تعكير صفو الأمن. فقد نفوه عن همشكوريب منذ ١٩٥٣ حتي ١٩٦٠ ولم تخمد لخلاويه نار مع ذلك. وقد كتبتُ عن بركة تعليم

الشيخ كلمة في رثائه عام ١٩٨٠ أعيد نشرها هنا درءً لقوى الهرج التي أحدقت بمدينته. فإلى نص الكلمة:
كان المشهد غزيراً حين اغمض عينيه للمرة الأخيرة. هذا الجميلابي البقلدابي من الهدندوة. الأمي، الأعرج، مندوب النبي إلى أمته، ٥٧ عاماً. فقد ترك في أهله البداة ٧ قرى بها ٣٠ ألف قاطن يطلب العلم فيها ٦٠٨٥ ذكراً ما بين سن السابعة والسبعين و ١٣٥٥ أنثى ما بين سن العاشرة وسن الأربعين. وكان المشهد عميقاً أيضاً. فقد تركتْ دعوة الشيخ، التي بدأت في الجمعة الأخيرة من شوال ١٣٧٣ (١٩٥٣) بصمة قوية على حياة أهله: في زواجهم وزينتهم وكيفهم ومعاشهم ومآتمهم وثأراتهم. كان المشهد غزيراً وعميقاً في ريفي الحدود، وهو من أبأس ديار الوطن، ووسط الجميلاب، الذين تتحدث التقارير الرسمية عن "شراستهم وإجرامهم" التأريخيين.
لعلي بيتاي رسالة أنشأها في نوفمبر ١٩٥٥ وهو قيد الإقامة الجبرية بأروما. وتضمنت الرسالة رؤى يقظانية مع النبي ومشاهد من سيرته ودعوته. والرسالة من نثر الرؤى المعروف الخطر. وهناك عينات ناضجة منه في تراث الشيخ بدوي أبو دليق حين كان يؤهل نفسه لخلافة كل الطريقة القادرية، وتراث الإمام المهدي وهو يستجمع في شخصه قوى الأولياء الموزعة لينهض بالثورة. وفي (الرسالة) خيال أساسي مثل قول الشيخ عن أيام غرقته: "وكان يسمونني في زمن غرقتي بالمجنون. الناس الذين لا يعرفونني. وقد كنت اتبع الحيوانات مثل الغزال والأرنب وآكل القرض، وكنت أتكلم بجميع ما أراه. وفي هذه المرة جروا ورائي جميع الخلق والحيوانات."
ولعلي بيتاي في (الرسالة) كلمات محكمات جميلات مثل "فرح الشجر والحجر" "وحيات البحر المختصمات" "واستواء الدنيا والتراب". ويقول الشيخ عن نفسه إنه إذا زعل تهلك الدنيا لأن السموات والأرض كهبَابة الجَبَنة معه. هدندوي! هدندوي!
الشيخ سيء الظن بالمدرسة وتعليمها. فقد رأى أحد متعلمي المدارس (قرأ المدرسة وأحب الكفار وعاداتهم) ضمن ثلاثة أموات يجري تعذيبهم "أجسادهم مقبّلة إلى المغرب في علو ورؤسهم في محل واطي وجسمهم أسود ليس له حد في السواد ولهم أنين لا ينقطع ولقد ظهرت من جسدهم حبوب مثل الملح".
وحين أطلعَ النبي (ص) الشيخَ على هذا المشهد حذّره من هذا النفر. فأزواجهم أمهاتهم حين يتزوج الموقنون الحور العين. "ومن ضحك معهم فقد ضحك مع الشيطان". وليس لأحد أن يسلم عليهم إلا إذا بدؤوا بالسلام، أو إذا خِيف غدرهم.

ولا خطاب معهم قبيح أو طيب. وإذا طلبوا النصح فليُدَلّوا على قبح أعمالهم ،وإذا طلبوا شيئاً من منافع الدنيا فليُعطوْه. ولا زواج منهم.
وربما رأينا غلوّاً في كلمة الشيخ هنا. غير أن له في حياته وإنجازه ما يبرر سوء ظنه القوي بالمدرسة. فالمطلع على التقارير الرسمية المبكرة عن الشيخ لا بد أن يأسف للسلبية التي قوبلت بها حركته. فقد تشوش المسؤولون على أيام الحكم الذاتي (١٩٥٤-١٩٥٦) والاستقلال عن إشراقة إصلاح الشيخ بهاجس الأمن. وشقي الشيخ بهذا أيما شقاء. وظل منذ أبريل ١٩٥٥ حتى ١٩٦٠ مبعداً من مركز خلاويه ملاحَقاً بالضمانات المالية والإقامة الجبرية في أروما (١٩٥٥)، وحلفا (١٩٥٦)، وكسلا (١٩٥٧) والخرطوم (١٩٥٨). إلا أن التغيير الذي قدح الشيخ زناده ما خمد له لهب. فقد زار مفتش البجة همشكوريب في مارس ١٩٥٦ وفي غيبة شيخها ورأى شيئاً عجبا. فلأول مرة يرى لدى قبائل البجة الرحل قرية كاملة تحوي نحو ٢٠٠ منزلاً من القش وعشر رواكيب هي المساجد التي يُدرس فيها القرآن. ورأى الناس وقد أزالوا شعرهم الذي كانوا يفخرون به وأبدلوا ثيابهم الرثة بأخرى نظيفة تسر الناظرين. ووجد أن نحو ١٥٠ ولداً تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة يتعلمون القرآن وحالتهم مُرضية. وحين سأل مساعد المفتش عن وكيل الشيخ صمت القوم صمتا. فهذا حديث لم يأذن لهم شيخهم بالخوض فيه. لأنه "ضحك مع الشيطان".
حين ترى الخوف الذي استولى على المسؤولين من الشيخ لابد أن ستقرُ عندك ما فعلته المدرسة بخريجها. لقد حجبت عنهم إمكانيات بيئتهم والأدوار الإصلاحية المتوقعة لكادرها التقليدي الكامن، كالمهدي أو نبي الله عيسى أو غيرهما. لقد بثت السلطة الاستعمارية في مناهج المدارس وغيرها فزعاً دقيقاً من المهدية. وطابقت بينها وبين انفراط حبل الأمن. ولامست حركة الشيخ هذا الفزع المركوز في نفوس الخريجين. فأنت واجد في كتبة التقارير الرسمية مَن ترسخ حذره من الشيخ لأن أهله الجميلاب كانوا في عصبة سمبو في نيالا عام ١٩٢١. وأنت واجد في الصحف مَن يحذّر من الشيخ لمشابهةٍ بينه وبين الفكي السحيني الذي نطح نطح الفكي سمبو في نيالا عام ١٩٢١. وسمبو والسحيني وتقليدهما الثوري مما نحتاج إلى يومنا الراهن لضبطه جيداً لبيان أن شوكة بلادنا لم يكسرها طول قهر المستعمر ولا عمقه. ولكن المتعلم بالمدرسة، الذي سعى لتحرير البلاد بأسلوبه، كان قد انتهى إلى نفس ريبة المستعمر في الثوري التقليدي (الأمي غالبا) لانقطاعه عن الأجواء التي يتخرج منها ذلك الثوري: أجواء الجذبة والخلوة والغَرْقة وصحبة الحيوان في الفلوات والمعرفة المباشرة بالاستشراق المنبهل

على القلب النظيف آكل الحلال، والإخبار عن النبي والصدوع لأمره، والرسالة المانيفستو. وظن الخريج بهذه الأجواء الظنون ونسبها بغموضها إلى مركز الفوضى ولا يخرج منها إلا كل داعية بالعصيان مما يحتاج معه إلى تحري الخطط وتحريك الوحدات النظامية "حتى لا ينجم من مثل هذا الرجل وأتباعه ما يعكر صفو الأمن."

والشيخ محقوق في ظنه السيء بالمدرسة. فقد جئنا بالمدرسة إلى منطقة نشاطه التربوي ولم نتكلف سؤال أنفسنا عن الفكرة الكبيرة وراء إحداق المدارس بخلاويه. لقد حل الشيخ بخلاويه أعقد إشكال في فلسفة التعليم حين اقترب من التعليم المتكامل الذي يوطن الدارس في تاريخه وبيئته ويحفزه للتغيير من معطياتهما. وهو تعليم في استدارة مواسم الطبيعة. لا تخرج عن جلدك لتحصيله، ولا تنقطع عنه لتنتفع به، ولكأنك تتمثله تمثل الأشجار الشمس البهيجة والسماء الشهية والماء الودود. وهذه مأثرة قصر دونها تعليمنا الحديث على حسن نية المحاولات التي أرادت أن تردفه بعناصر التكامل مع البيئة ابتداء ببخت الرضا وترييف التعليم حتى مشروع التعليم الأخضر.

لقد تعجّب مساعد مفتش البجة وهو يرى ازدهار خلاوي الشيخ في حين عجز هو عن إيجاد تلميذ واحد لإحدى مدارس المنطقة. وبلغت نسبة التسرب ١٠٠% بين الفصل الأول والسادس في المدارس الابتدائية بقرى درسا ومامان وإيلاتيوز حسب إحصائيات ١٩٧٥-١٩٧٦. وانصرفنا عن تعليم البنات بالمنطقة مرة واحدة ظانين في الهدندوية قلة الوعي وهي التي تغص بها الخلاوي. ومع هذا لم نوّفق إلى سؤال أنفسنا: لماذا نروّج للمدرسة في بيئة ينبثق تعليمها من تجربتها التاريخية والمعاشية؟ لماذا نتجشم تعليم القوم في حين نصم آذاننا عن اقتراحاتهم العملية للصورة التي يريدونها له؟ لهذا قال الشيخ: "المدرسة تغش القلوب". ولهذا جاء في اللعن عند الكبابيش: "المدرسة يقرقر فيها البعشوم". . . كناية عن الخراب.

لقد تحفظت في القول ببلوغ مؤسسة الشيخ التربوية غاية التعليم. فهي على حالها الراهنة ناقصة نوعاً ما في بعدها القومي العام. وهو نقص ظهر أن الشيخ منتبه له حين حث الأولاد على الالتحاق بالمدارس أيضاً وتولى الإنفاق على النجباء منهم لما رأى كره أولياء أمورهم ترقيهم في سلم التعليم القومي. وكان على أهل التربية أن يبدؤوا من هذا النقص بأناة حتى يصلوا ما بين مناهج خلاوي الشيخ ومناهج المدرسة القومية المعروفة، ويهيئوا لخريجي تلك الخلاوي بخاصة شهادات مقومة تكفل للراغبين منهم السير في مدارج التعليم القومي. وكان المأمول وما

يزال أن يتم ذلك بروح مستنير متحل باحترام جدي للإبداعية التربوية التي تستبطن مؤسسة الشيخ وروح ملتزم بإخراجها من النقص إلى الكمال بلا تعسف ولا استعلاء.

سمع الشيخ النداء: أمتي. أمتي. أمتي . . . ولبّى. انتصر في حياته الحافلة للغزلان والهدندوة على أنه مندوب الأمة من سهل وجبل. وسنحتاج إلى النظر الدقيق في تجربة الشيخ وقد تركنا جانباً ما تواضعنا عليه من حذلقة ومسبقات وبرم. وأحس أننا سنصدق الشيخ حينئذ في كلمته من أن النبي قال له إن مدته ستكون سعيدة على أمته.

ما الذي سيبقى من مأثرة الشيخ؟ هذا ما سيقرره أحبابه وخلفاؤه منهم بوجه خاص. وتبقى مع ذلك كلمة. الكثيرون راغبون في إسداء خدمة ل "أدروب الجائع في الشرق". القليلون هم القادرون على مخاطبته وهو يلتحف أساه التاريخي صامتاً في لغاته الأثرية. والواحدون فقط في كل حقبة تاريخية مَن يستطيعون انتزاع ثقته. وعلي بيتاي كان واحداً في الواحدين. وسيرطب قبره أن يتصل العمل باسمه من أجل الهدندوي البسيط بريفي الحدود.

بمثابة الخاتمة

١

أزعجني دائماً أن معهد التربية ببخت الرضا، مهما قلنا عن حسناته، اكتسب صفة القداسة. فلا نقد يطاله لأنه التعليم الخاتم ومن أدخل الأبواب على "كهنوتية" بخت الرضا هو أن الصفوة المحدثة واليسارية قد بطل عندها بالكلية نقد الاستعمار. وسبب ذلك هو خيبة الحركة الوطنية ودولتها التي ألجأت الصفوة من فرط قلة الحيلة لترى في عهد الاستعمار "عصراً ذهبيا" نبيلاً. وشاعت العقيدة في صواب الاستعمار حداً مزعجاً. ومن ذلك استسخافهم للفكرة الوطنية ذاتها. فالاستعمار عندهم رحل عنا طوعاً ولا مجد لمدعيّ إخراجه عنوة. ومن آخر ما قرأت في هذا الغريب من التهافت قول الأستاذ شوقي بدري إنه اتفق للإنجليز منذ الأربعينات أن يتركوا السودان خلال عشر او خمس عشر سنة. وفعلوا. ففيم الضجة؟ فلم يأت بالاستقلال أحدا. والسودان نفسه لم يكن مستعمرة. " ولم يتبع ابدا لوزارة المستعمرات. ولم يكن هنالك استيطان بريطاني في السودان. بل ٧٠٠ موظف في كل السودان. فلا يحق لأي انسان ان يدعي بأنه قد اتى بالإستقلال للسودان. هذا محض كذب" (سودانايل ٢٦-٤-١٠). ويقع هذا التنصل عن الوطنية ومصطلح الاستعمار عندنا في وقت الذي تسود بين غيرنا مدرسة دراسات ما بعد الاستعمار وتكتشف في الاستعمار سوءات تقعد بنا دون التحرر والسيادة وكانت فاتت على الحركة الوطنية نفسها.

وذاعت عزة التربويين ببخت الرضا بين العامة. فالسيد هاشم مساوي، الذي لا أعرف إن كان معلماً أم لا، وصف المعهد بأنه هدية الإنجليز لنا. فرأى فيه شموخاً وراءه أهداف واضحة وبعد نظر نفقده الآن كثيراً. وزاد قائلاً بأنه قد رعى هذا الصرح مستر قريفث أحد أبناء جون (الإنجليز) الذين ألقت بهم يد القدر في أرض السودان ليهدي الأمة السودانية كنزاً ما عرفوا التعامل معه (السوداني ١٨-٣-٢٠٠٦). وقس على ذلك من ضروب الورع السياسي حيال هذه المؤسسة الاستعمارية.

تنبهت بعد قراءة الدكتورة فدوى عبد الرحمن علي طه إلى وجوب تمييز نقدي لمعهد بخت الرضا عن نقد الآخرين له. وهو نقد حرض عليّ خريجي رضا وعارفي فضلها. وآخرهم الأستاذ هلال زاهرالسادات الذي صرف نقدي لها ك "افتراء". فجاءت فدوى في كتابها المميز عن والدها، وهو من مؤسسي بخت الرضا في ١٩٣٤، بطائفة من نقد المعاصرين للمعهد. وما أخذته على فدوى أنها لم تأت بهذا النقد من افواه قائليه بل من افواه من ردوا عليه من "سدنة" المعهد مثل والدها وقريفث، أول مدير له، وعوض ساتي الذي هو من طاقم المعهد البارز ومدير مكتب النشر فيه ومحرر جريدة "الصبيان" المرموق.

واضح أن نقد هذه المؤسسة التربوية الاستعمارية قديم. فمنذ قيامها أرتاب رواد الحركة الوطنية في مقاصدها. فعدوها "مؤسسة استعمارية" أبعدها الإنجليز في خلاء الدويم من الناس لئلا يروا المؤامرات التي تحاك بين جدرانها. ومن ذلك أنهم يرسلون المدرسين النجباء لكي يموتوا في بيئتها العسيرة أو تموت فيهم الرغبة في التعليم. ومن الناقدين من خشي على تطور التعليم في السودان مغبة التوجه الريفي لرضا. فمثل هذا التوجه قد يعزلنا عن الصناعة التي هي أساس العمران في عصرنا. وكان من رأي بعض خريجي كلية غردون أنها ستخرب تعليم غردون .وزادوا بأن إدخال اللغة الإنجليزية في منهج مدرسي المدارس الأولية لم يقصد منه إلا قفل كلية غردون والاستغناء عمن تخرجهم من كتبه ومحاسبين.

واستراب خريجو المعهد العلمي أن رضا ستهدم خلاوي القرآن. وقال الناقدون إن كتاب الجغرافيا المحلية، سبل كسب العيش في السودان، هو النواة لأقلمة التعليم. وتساءلوا "ما قيمة الفرق التجديدية (كورسات المدرسين الدورية) والرحلات المدرسية فهي في حسابهم ضياع للوقت وحرمان من الدرس والتحصيل". وأن تدريب الطلاب على النقاش الحر هو لطبع الشباب باللجاج والخروج على التقاليد. ومن نقد بخت الرضا الباكر أنها ينبغي أن تكف عن التجريب وتأخذ من خبرات العالم لتنفق ما بيدها من مال على زيادة المدراس.

وليس نقدي كنقد هؤلاء أو أولئك. فنقدهم نقد "مقاومة" وطنية "مشوش" تجاه المؤسسة يلقي عليها بالاتهامات من خارج جدرانها. فهي ستهدم كلية غردون أو الخلاوي أو أنها ستلهينا عن الصناعة أو أنها سيئة في تدبير المال. وبعض النقد "مؤامراتي" مثل تعريض نوابغ المعلمين لبيئة رضا الوخيمة. وربما ظلمت هؤلاء النقدة بأخذ زبدة قولهم من أفواه سدنة بخت الرضا. ولكن نقدي لرضا الذي

أذعته بالصحف ينفذ إلى باطنها ويناقش فلسفتها ومناهجها عن كثب. فأنا لا "أظن" بها الظنون التي تجد أقوى ذرائعها في العاطفة الوطنية. فهذه وطنية المقاومة التي تكره الاستعمار ولو جاء مبرأ من العيب.
اما وطنيتي فهي وطنية النهضة التي "تفلفل" الظاهرة الاستعمارية نصاً نصاً تستنطقها فلسفتها ونهجها مباشرة. فوطنيتي هي وطنية ما بعد ذهاب المستعمر المحتل ممن اعتقدنا أنه أعطانا ظهر قفاه ب"ولده وعدده" كما قال العطبراوي. ثم اكتشفنا أنه غادرنا "جته" ليترك فينا مأثوره الذي نسميه "المعرفة الاستعمارية". وهي معرفة لا منجاة لأحد من الأهالي، وصفوتهم خاصة، منها إلا لمن رحم.
أضرب للفارق بين نقد الوطنية المقاومة والوطنية النهضوية مثلاً: قال المقاومون إن بخت الرضا ستهدم كلية غردون. وغردون ذاتها "نفرها" شنو؟ أليست هي مؤسسة استعمارية كذلك؟ هذا ما يطرأ للمقاوم النهضوي متى سمع مثل هذا التفريق بين رضا وغردون. وأنا غردوني لم أترك لكلية غردون وامتداداتها جنباً ترقد عليه في كتابي "الشريعة والحداثة" وصورته الإنجليزية الموسعة "هذيان مانوي".

٣

انقطع الحبل من حول عنق الثائر الوطني الروسي خلال تدابير إعدامه. فقال مسكينة أيتها الروسيا. حتى الشنق لا يحسنونه فيك". وبعد قراءتي لبعض "فعائل" الوطنيين بكتاب " سبل كسب العيش في السودان" الصادر عن معهد بخت الرضا الاستعماري، قلت: "مسكينة أيها السودان! حتى نقد الاستعمار لا يحسنونه فيك".
قرأت طرفاً من هذه "الفعائل" في كتاب الدكتورة فدوى عبد الرحمن على طه عن والدها من المؤسسين لرضا. وانفضح التربوين المايويون. فأصبح اسم كتاب" سبل كسب العيش" بفضلهم "رحلاتي إلى أصدقائي". يالسقم الذوق! وغيروا البيتين عن زيارة صديقنا بالقولد وهما:

خرجت أمشي معه في الساقية ويالها من ذكريات باقية
فكم اكلت معه الكابيدا (القراصة) وكم سمعت آورو ألودا ( )

إلى

زرنا معاً خمائل النخيل في ظلها طاب لي مقيلا
وجدت فيها صاحب التعاون لخيرنا
يسعى بلا تهاون

بزعم مجاراة تغير حال الصديق ومجتمعه. وهي حجة لا بأس بها. فلم تعد الساقية هي أداة السقيا. ولكن هل لم يعد أهل القولد يأكلون الكابيدا التي صارت وجبة

شعبية في قلب الخرطوم الإفرنجية؟ أم هو كفوا عن "الرطانة"؟ وأنظر إلى "تكسير التلج" التربوي في "صاحب التعاون". نِعمَ الاشتراكية!
وجدت فدوى في تعديلات أهازيج "سبل كسب العيش" اعتباطاً. وقال المغيرون أنهم رأوا تغيير أسماء الأصدقاء (التي كانت لاشخاص حقيقيين) لتفادي كبر سن أولئك الأصدقاء أو وفاتهم. فغيروا اسم الصديق بشرق السودان إلى "حاج عامر" بدلاً عن "حاج طاهر بغير حاجة ملجئة. ثم عكسوا اسم الصديق بسهل البطانة من "محمد القرشي" إلى "القرشي محمد". ولكنهم ابقوا على الاسم القديم في الأهزوجة غصباً عنهم نزولاً عند الميزان الشعري:

نزلتها والقرشي مضيفي   وكان ذاك في أوان الصيف

وطال التغيير اسم صديقنا بود سلفاب بالجزيرة: أحمد محمد صالح. وبقي اسم منقو زمبيري في جنوب الزاندي كما هو! جبانات!

٤

ومن ضروب الورع حيال بخت الرضا ما عثرت به وأنا اقلب برامج الأحزاب السياسية لمعرفة رأيها في إصلاح التعليم قبيل إنتخاباتنا الماضية. ووجدت في كتاب حزب الأمة "أوراق المؤتمر العام الثالث" (٢٠٠٩) ورقة عن التعليم تكاد تكون إطراءاً عظيماً لمعهد بخت الرضا. فسمته المعهد "العريق العتيق" كثير المهام و"بيت الخبرة" الشمس الذي تدور حوله أفلاك المعاهد الأخرى. واستنكر الكاتب أن تعهد الحكومات اللاحقة لبخت الرضا مهمة وضع مناهج المرحلة الثانوية قائلاً: "كيف يمكن لهذا الصرح أن يقوم بكل ذلك مع العملية التربوية الذي أسسه مستر غريفث ومستر هووجين؟ (هودجكن) لها. وقال إن هذا البيت الكبير تسودن وظل يعطي الوطن خبرة أبنائه ممن هم "ملء السمع والبصر". ووصف المعهد ب "الصرح" الذي علمنا أن "نمتلك سلاح المعرفة" حتى قال عن الأجيال التي تخرجت بواسطته " أجيال لا شبيه لهم في الألفية الثالثة".
وتبرز "العقيدة" في روعة بخت الرضا كتعويض عن خيبتنا في الاستقلال في نعي "أوراق" حزب لإ نطواء صفحة هذه المؤسسة التربوية الغراء بفضل النظم الشمولية التي تتابعت من لدن نميري إلى الإنقاذ. فأهمل نميري بخت الرضا وارتجل سلماً تعليمياً فاسداً. وبدأ توريط التعليم في سياسته وأكملت ذلك دولة الإنقاذ. وتوسع الكاتب في عرض أخطاء الإنقاذ في التعليم مما هو معروف. واختتم مقاله بتوصيات أراد ببعضها رد الاعتبار لبخت الرضا حتى بعد أن ماتت وشبعت موت. فقال بوجوب "إعطاء بيت الخبرة بخت الرضا صلاحيات أوسع

في وضع المنهج وتجريبه في مدارسها. واضاف بوجوب "الاستعانة بخبرات خريجي بخت الرضا في مجال المنهج والتدريب والمتابعة حتى لو ذهبوا للمعاش".

استغربت هذا الولع بمؤسسة استعمارية تربوية. واستغربت ذلك خاصة من حزب الأمة المجدد للمهدية التي قضى عليها الاستعمار باني بخت الرضا. والأعجب أن هذا المعني لم يغب عن كاتب الورقة. ففي مقدمتها التاريخية ذكر المهدية ك "أول حكومة وطنية مائة بالمائة من صلب هذا الشعب" بقيادة المهدي الذي أسس دولته، التي لم تدم/ على المعرفة. فجاء الاستعمار "وانطوت أعظم صفحة خلدها التاريخ المعاصر بأحرف من نور على جبين هذه الأمة الفاضلة". فبدأ في تخدير الشعب "بالتعليم وخاصة التعليم الأساسي بقيام كلية غردون" وتخريج بعض الأفندية في مجالات الخدمة المدنية المختلفة. ومافرغ الكاتب من هذه الشعارات الوطنية المفعمة في مقدمته حتى أطنب في مدح "صرح" بخت الرضا العريق العتيق.

تمثل عبارة حزب الأمة في التعليم حالة "فصام معرفي". فهي على الجانب الصحيح من جهة الوطنية. فقد قالت بالنص إن الاستعمار هدم المهدية التي هي زبدة معارف السودانيين وممارساتهم في المعاش والمعاد. ثم استخدم التعليم ل"تخدير" السودانيين أي حملهم على تقبله. ولكن العبارة تخطيء من جهة التربية فلا ترى في "بخت الرضا" أداة مركزية من أدوات "التخدير" لإسباغ الشرعية على مهمة الإنجليز بيننا. وهذا الفصام المعرفي هو الأصل في النوستالجيا ضاربة الأطناب بين صفوتنا البرجوازية الصغيرة التي ترهن النهضة بالعودة إلى مؤسسات الزمن الجميل الذي مضى. فشعاراتها الوطنية في واد وأفقها في ممارسة مهنها في واد آخر. فعلى صوابها السياسي الشعارتي وجدت نفسها خلواً من الخبرة الوطنية في إدارة البلد على نهج قويم. ولذا تجدها، كما رأينا كاتب حزب الأمة يفعل، تنتقل بما يشبه الفصام من هجاء الاستعمار إلى مدح مؤسساته والغلو في ذلك. ومنعنا هذا المأزق المعرفي من أن نتصل بفرع في فلسفة التربية هو "الاستعمار والتعليم".

٥

لا أعرف اثراً من بخت الرضا اكتنفته القداسة مثل كتاب "سبل كسب العيش في السودان" الذي هو عبارة عن مقرر الجغرافيا للسنة الثالثة أولية بحسب النظام القديم. ولم نكترث في هذا التبجيل للكتاب للطريقة التي روضتنا بعض دروسه

على قبول نظرية "البوتقة" في بناء الأمة. وهي عقيدة منافية للتنوع الثقافي على خط مستقيم.

وأكثر ما يعيق تنزيل معنى التنوع الثقافي في الوجدان هو إعفاؤنا مؤسسة كبخت الرضا من النقد. بل أصبحت فينا قدس أقداس. فلسنا نرد نوازعنا الفكرية خيرها وشرها إليها بوصفها الذهن الذي كان من وراء المناهج التي أنشأتنا. فأنظر ما جاء في مقال هاشم نقلاً عن كتاب "سبل كسب العيش في السودان" مقرر الجغرافيا للسنة الثالثة أولية. وهو منهاج تبتل أكثر من مروا عليه ورفعوه إلى منزلة "في القولد التقيت بالصديق" وأكرم بها من منزلة! و ما جاء في الكتاب دعوة صريحة بالبوتقة. قال الكتاب في لقائنا الأول بصديقنا منقو زمبيري في يامبيو بالإستوائية:

(وبعد غروب الشمس نصل إلى يامبيو ويستأنف اللوري سيره غرباً لمدة خمس دقائق ثم يقف وننزل. وترى ولداً صغيراً مقبلاً نحوك. يخاطبك الولد قائلاً: ستي ستي (سلام سلام) وينيه منقو (اسمي منقو) موبي قووري (اتبعني إلى المنزل). هل تنكر أحد أصدقائك خاطبك بلغة لم تفهمها؟ إنك بالطبع لا تفهم لغة منقو زمبيري وسأفسر لك ما يقول). ثم يواصل معلم الجغرافيا من الكتاب قائلاً: (وقد بدأت اللغة العربية تنتشر في الجنوب بانتشار التعليم في الجنوب وسيأتي يوم يمكنك فيه أن أن تتفاهم مع أي شخص في أي بقعة من السودان بلغة واحدة) (السوداني ١٨-٣-٢٠٠٦)

ورجعت إلى طبعة ١٩٤١ من الكتاب ولم أجد الجزء الذي تحدث عن انتشار اللغة العربية التي ستكون هي لغة يتفاهم بها الجميع وقد تخلصوا من "آورو الودا" " وسني وسني" من "رطانات الأعاجم". وواضح أن هذه الزيادة من فعل الوطنية الشمالية التي تسيء الظن بلغات الأقوام غير العربية.وهي إساءة كلفتنا شططا.

لا عجب إن لقي مبدأ التنوع الثقافي منا هذا الإزراء طالما هيأنا تعليمنا لوطن "المسطرة"، وطن البوتقة التي يخرج منها السودانيون قاطبة متى دخلوها على وتيرة واحدة.ولما أنشأنا بخت الرضا على عقيدة الوتقة ارتفع في ناظرنا أولئك الذين عملوا على نشرها. فمساوى أثني على المرحوم سر الختم الخليفة ثناءاً كثيراً لتعريبه التعليم في الجنوب حين كان مسئول وزارة المعارف فيه. ورأى مساوى في هذا التعريب خدمة "تبشيرية" عظمى قائلاً: "وأي خدمة أقوى للدعوة الإسلامية من نشر اللغة العربية والحضارة بالتعليم". وأغلب الظن هنا أن مساوي ربما عقد مقارنة بين خدمة سر الختم الملموسة للدعوة الإسلامية بالتعريب وخدمة

الإنقاذ لها التي لم تخرج عن الشعارات. وربما لم يتفق المرحوم مع مساوى عن طبيعة خدمته للجنوب بتعريب التعليم. فتعريبه التعليم هناك كان بعض أمنيات الوطنية السودانية العلمانية لتعكس تيار المستعمرين: من الإنجليزية إلى العربية.
وأبعد مساوى النجعة في طلب التعريب. فهو يرى لزوم أن يتعرب التعليم ليحصل الإداري الجنوبي على حصيلة عربية تعينه في مهنته متى تنقل في أرجاء القطر.
ونظر في ذلك إلى تقليد استعماري إنجليزي. فكانوا يقررون على إدارييهم المستجدين تَعلّم العربية واجتياز الامتحان فيها قبل تثبيتهم في الخدمة المعاشية.
بل وقبل الإذن لهم بالزواج. فإذا فعلها الإنجليز ما ضر أن نفعلها. وقال إنهم اكتفوا بتعليمها لطاقمهم الإداري ولم يدخلوها في المدارس كما فعل سر الختم.
وفي الواقع كان الإداريون الجنوبيون يخضعون لذلك الامتحان فأحتجوا حتى خلصتهم ثورة أكتوبر ١٩٦٤ منه.
سمعت لكل من الفريق جوزيف لاقو، قائد حركة الأنانيا في الستينات، والفريق مالك عقار، القيادي بالحركة الشعبية، ووجدت أنه ربما كان أعظم أسبابهما ل"التمرد" جاء من جهة هوانهم الثقافي. فالوطنية الشمالية رتبت لوطن أحادي الثقافة ضاق بجلبابه القوم وثاروا حتى تصالحنا عند عهد نيفاشا الذي كرَّم ألسنتهم بهدي القرآن:
"ومن آياته خلق السماوات والارض و اختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين"

فهرس

رقم الايداع
٢٠١٠/٢٤٤